

محمد الغزالي



فن الذكر والدعاء

عند خاتمة الأنبياء

دار الشروق

محمد الغزالي

فَنِّ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ

عند خاتم الأنبياء

دار الشروق

مقدمة

نحن المسلمين نعرف ربنا معرفة صحيحة، ونعترف بحقوقه اعترافاً كاملاً، ونضم إلى هذا وذاك شيئاً آخر، أن الارتفاع إلى مستوى عبوديته يتطلب قدراً كبيراً من الطهر والشرف والأدب...!!

ولنشرح هذه الكلمات بإيجاز..

هناك من ينكر الألوهية، وفي عالمنا جماهير كثيفة ودول مسلمة تقوم على الإلحاد.. لكننا نحن المسلمين نصحو وننام، ونغدو ونروح، وفي أعماقنا إحساس بأن قلوبنا تدق، وعيوننا تبصر، وأيدينا تتحرك بقوة الله، إحساس بأن الليل يدبر، والصبح يتنفس، والكون كله يدور وفق قوانين محكمة بقوة الله..

البون بعيد بعيد بيننا وبين الملحد.

وهناك من يعرف الألوهية معرفة رديئة أو مغشوشة، ربما ظنوا أن لله ولداً، أو أن له شريكاً، أو هناك من يعقب على حكمه، أو من يراجع أمره!

وذلك كله يرادف الجهل بالله، فإن المعرفة لا تصح إلا مع إدراك يوافق الواقع وتتألق فيه الأسماء الحسنى والصفات العلا..! وما أكثر الذين لا يعرفون الله المعرفة الواجبة، وفي الدنيا جماهير غفيرة من هؤلاء الجاهلين: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾^(١) وهناك من يعرف الله على قدر ما من الحق، بيد أنه يعطى نفسه حق التصرف بغير هداية، وحق الانطلاق في الأرض وفق هواه..

والله عز وجل يطلب من خلقه أن ينقادوا له، وأن تقوم علاقتهم به على مبدأ السمع

(١) سورة يوسف: ١٠٦.

والطاعة : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ (١).

ومعنى ذلك أن رسالة الأحياء على ظهر الأرض التقيد بأمر الله ، وإبداء الخضوع له . والله شرع لعباده النظام وهم شرعوا لأنفسهم الفوضى ، نعم الله أمر ونهى ، لا لنفع يعود عليه أو لضر يتقيه ! إنما هى مصلحة البشر .

وقد تجاهل أناس رسالتهم ، ونسوا ربهم ، وشرعوا لأنفسهم ، فماذا كسبوا؟ كسبوا أزمات الجوع والخوف !! إن الساسة أجهدوا ذكاءهم فى الشرق والغرب حتى درت الأرض السمن والعسل ، ثم جمدوا ذلك الخير كله فى أسلحة الدمار الشامل ، وبقيت الأمم تلهث وراء الضرورات المضنية .

ألا ما أشأم العصيان وأقل جدواه مهما صاحبه من ذكاء وحضارة . إن نصف الجهد فى تحصيل الأقوات لو بذل فى الأدب مع الله وابتغاء رضاه ، لكسب الناس الدنيا والآخرة معاً ، إننى أنظر إلى الكفاح الوحشى فى كسب الرزق ، وإلى كل جبين مقطب ، وعين مكسورة ، ثم أذكر الحديث القدسى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : «يا بن آدم تضرع لعبادتى أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك» .

وأعرف أن بعض الناس قد يسارع إلى إنكار هذا الحديث ، يحسب أن المقصود منه العكوف فى المحاريب !

وما درى هؤلاء أن جوهر العبادة إسلام القلب والوجه لله ، ثم تعبر القدم فى ميدان الكدح الشريف دون جزع ولا هوان . .

إن العبادة كما هى ضراعة وتسبيح ، قدرة على امتلاك الحياة وتسخيرها لله ، ولإعلاء اسمه . بل إن الوعى الصحيح بحقوق الله يرتبط بالمعنى الثانى أكثر من ارتباطه بالمعنى الأول . المعنى الأول علم ، والمعنى الثانى تدريس لهذا العلم ونشر لحقائقه وجهاد دونه ، وهذا عمل الأنبياء ومن سار فى آثارهم . . . !

والعبودية لله درجة من الكمال لا تتاح لكل أحد ، بل يرشح لها من استجمعوا خصالا معينة .

(١) سورة الذاريات : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

هناك عارفون بالله ، ولكن المعرفة تتفاوت وضوحًا وغموضًا وسطحية وعمقًا .
وهناك مطيعون لله ، ولكن الطاعة تتفاوت نشاطًا وكسلًا ، وخفة وثقلًا ، وتكلفًا وترحيبًا .

والعبودية الكاملة إنما يحظى بها من أشرق يقينه وطار إلى ربه بجناح من الشوق والحب .
وفي طباع الناس حب لأنفسهم ربما سيطر على مسالكهم كلها ، وهؤلاء محجوبون عن
الله أبداً ، وليس يرقى إلى درجة العبودية إلا امرؤ أحب الله ، وأحب فيه ، واكثر بشئون
غيره ، وهش لمصالح الخلق ، وضاق بالآلامهم . .

في ميدان العلم والدراسة ناس منسوبون لله لأنهم مرتبطون بحقائق الوحي لا يحيدون
عنها يساق فيهم قوله تعالى : ﴿ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم
تدرسون﴾ (١) .

وفي ميدان الجهاد الدامى ناس منسوبون إلى الله يحملون أعباء الكفاح بجلد ، ولا
ينكشفون تجاه الهزائم المرة ، فيهم يقول الله : ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا
لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾ (٢) .

إن النفس التى يقول الله لها : ﴿فادخلى فى عبادى * وادخلى جنتى﴾ نفس من طراز
خاص ، نفس استراحت إلى الله وتعاليمه ، وآثرته على غيره من مغريات المال والجاه ، ولم
يكن ذلك خاطراً مساوياً بل كان صيغة حياة ، وتحديد وجهة .

وهذا معنى النداء العالى : ﴿يأتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية *
فادخلى فى عبادى * وادخلى جنتى﴾ (٣) .

ذوو الحرمة بيننا يابون أن يصادقوا مختل الفكر ، أو معتل الخلق ، أو معوج السلوك ،
فكيف يرتضى رب العالمين أن ينتسب إليه سقيم العقل ، هابط السجايا ، مضطرب
السيرة ؟

إن مقتضى الآثام دون درجة العبودية المرموقة ، والجنة مأوى لمن طابت سريرته ،
واستقامت خليقته ، وقويت بالله صلته !!

(٢) سورة آل عمران : ١٤٦ .

(١) سورة آل عمران : ٧٩ .

(٣) سورة الفجر : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ .

وما أزعج العصمة لمن بلغ درجة العبودية ، فإن الخطأ طبيعة الناس ولكن عباد الله الصالحين إذا أخطئوا مسحوا أخطاءهم بعبرات الندم حتى لا يبقوا لها أثراً . .

* * *

شغفت بسير العباد الصالحين ، وحاولت أن أقبس منها شعاعاً أستضيء به .
كنت بقلبي مع موسى في مدين ، وهو يحس لدع الوحشة والحاجة ويقول : ﴿ رب إنى لما أنزلت إلّى من خير فقير ﴾ (١) .

وكنت مع عيسى وهو يواجه مساءلة دقيقة ويدفع عن نفسه دعوى الألوهية : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ (٢) .

وكنت مع إبراهيم وهو بوادى مكة المجذب يسلم ابنه للقدر المرحوب ، ويسأل الله الأنيس لأهله : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرو ﴾ (٣) .

غير أنى انبهرت وتاهت منى نفسى ، وأنا بين يدي النبی الخاتم محمد بن عبد الله ، وهو يدعو ويدعو .

لقد شعرت بأنى أمام فن فى الدعاء ذاهب فى الطول والعرض لم يؤثر مثله عن المصطفين الأخيار ، على امتداد الأدهار . .

ولست فى مقام مفاضلة بين أحد من النبیین ، إنها حقيقة علمية رأيت إثباتها فى صفحات قلائل ، مشفوعة بالدلائل التى تزدهم حولها . .

وقد نقول : أعلى جبل فى الأرض جبل كذا فى الهند ! وما نقصد النيل من الجبال الأخرى ، إنه ذكر حقيقة .

قد نقول : إن الشمس أكبر من القمر سبعين ألف ألف مرة ، لیکن ، ذاك تقرير حقيقة .

(٢) سورة المائدة : ١١٧ .

(١) سورة القصص : ٢٤ .

(٣) سورة إبراهيم : ٣٧ .

وفى هذا الكتاب سياحة محدودة فى جانب شريف من جوانب السيرة، جانب الذكر والدعاء .

ما فيه من توفيق هو محض الفضل الأعلى ، وما قد أخطئ فيه هو رشح نفسى الأمانة بالسوء . .

ورجائى أن يقبل ربهى هذه الكلمات فى ميزان الحسنات ، كما أرجوه - تبارك اسمه - أن يقبل صلواتى على النبى العربى المحمد ، وأن يسعدنا جميعاً بشفاعته .

كَيْفَ عَرَفْنَا مُحَمَّدًا بِاللَّهِ

أنا أحد الألف المؤلفات التي تؤمن بالله العظيم، وتسبح بحمده، وتقر بجلاله ومجده، وتنتعش بنعمته ورفده .

ولقد عرفت هذا الإله الكبير عن طريق النبي العربي المحمد، قرأت كتابه، ثم درست سيرته، فتجاوبت فطرتي مع رسالته، واستراح فكري وقلبي إلى دعوته، وأصبحت واحدًا من جماهير ضخمة رضيت بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد- عليه الصلاة والسلام- نبيا ورسولاً .

كان في الناس من لا يعرف الله أصلا، فأثار محمد بصيرته، وقاده من ضميره إلى مولاه . وكان هناك من يعرفه معرفة فاسدة، يظن له ولدا يشفع، أو شريكا ينفع، فجاء محمد- عليه الصلاة والسلام- يقرر عقيدة الوحدانية المطلقة، وينفي أن يكون لله ابن أو ابنة، أو ند أو ضد، شبيه في العظمة أو معقب في الحكم: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ﴿فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذروكم فيه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير﴾ له مقاليد السموات والأرض يسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم ﴿١﴾ .

ومعرفة محمد بالله لا تسبقها معرفة في الأولين والآخرين، لأنها معرفة تنبع من شهود لا يخبو سناه، ولا يغيم ضحاه . والمسلم المتأسى برسوله يحس أن لهذه المعرفة سمات خاصة تبدو في حديثه- عليه الصلاة والسلام- فهي واضحة صادقة حارة نفاذة، نعم لا غموض ولا افتعال، في حديث هذا النبي عن الله، وفي ربط الناس به .

(١) سورة الشورى: ٩ - ١٢ .

وللكلام الإنسانى درجة حرارة معينة يموت دونها فلا يترك أثراً، ولا يبلغ هدفاً، وعندما يذكر محمد ربه راغباً أو راهباً يشتد النبض فى الكلمات المناسبة، وتحتد العاطفة فى المشاعر الحارة فلا يملك قارئ أو سامع إلا أن يخشع ويستكين لله رب العالمين . .

كنت أتابع يوماً درساً فى علم الأفلاك حيث تقفز الأعداد إلى شطحات تسبق الخيال، وتقاس المسافات بأرقام تنقضى قبل إحصائها الآجال . .

وتضاءلت فى نفسى، ثم عدت إلى مواقع الأقدام من أرضى . ونظرت إلى ما تحت الثرى، وعلمت أنى لا أدرى، ولا أرى .

ترى ما هناك فى أعماق هذه الكرة حتى النقطة المكشوفة من سطحها فى الجانب الآخر؟ أشياء كثيرة نجهلها كل الجهل، قلت : لكن الله وصف نفسه فقال : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ * له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴿^(١)﴾ إن اللمعة المضيئة عند سدرة المنتهى كالحبة المستخفية فى ظلمات الأرض، سواء فى علمه - تبارك اسمه - وهو علم مسطور فى سجل بين دقيق . . !!

وملأت أقطار نفسى عاطفة إعجاب بهذا الخالق الأعلى، بيد أن الكلمات المعبرة تقاصرت ثم احتسبت، وشاء ربه أن يلهمنى ترديد كلمات تنفس عما بى، فإذا الكلمات المعبرة فى حديث رواه على بن أبى طالب يصف صلاة النبى الكريم جاء فيه « . . وإذا ركع يقول فى ركوعه : اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعى وبصرى ونخى وعظمى وعصبى ^(٢) وإذا رفع رأسه من الركوع يقول : سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شىء بعد ^(٣) وإذا سجد يقول فى سجوده : اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق فيه سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين ^(٤) .

فى هذه المناجاة ترى الألوهية الكاملة والعبودية الكاملة . .

(١) سورة طه : ٥ - ٨ .

(٢، ٣، ٤) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى .

بين يدي بديع السموات والأرض يجثو عابد ملهم ، فيهمس في ركوعه وسجوده بكلمات تصور ما ينبغي أن ينطق به كل فم تحية لذي الأسماء الحسنى !!

إن المسلم الأول- وهذا ترتيب محمد بين النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - له فن في الذكر والشكر والإنابة والدعاء لم يحفظ مثله لبشر. وسنلقى نظرة على ما أثر عنه عليه الصلاة والسلام- لنجلو هذه الحقيقة . .

رجعت البصر في كتب مقدسة لأديان أخرى ، فوجدتها كلها دون ما حوى القرآن الكريم من إعظام لله ، وتفصيل لأجاده ومحامده ، لقد ذكر القرآن أسماء الله الحسنى مئات المرات في تضاعيف قصصه وتشريعه ووصفه لمشاهد الكون ، ومشاهد البعث ، ورفض أن يكون الثناء على الله نظرياً لا يتحرك به فؤاد ولا يرقى به سلوك . ثم ترجم النبي العابد محمد عليه الصلاة والسلام هذا المنهج في نواحي حياته كلها فصار إنساناً ربانياً ترنو بصيرته إلى الله ويباشر كل شيء في الدنيا باسمه ، كأنه منه على مرأى ومسمع . إن الغنى بالله لا تدنيه مشاعر الرغبة والرغبة ، والقوى بالله لا تقلقه أعداد القلة والكثرة ، والمراقب لله تستوى عنده الخلوة والجلوة ، وطالب الآخرة لا تستخفه مآرب الحياة الدنيا .

وقد كان محمد- عليه الصلاة والسلام- عامر القلب بربه ، عميق الحس بعظمته ، وكان ذلك أساس علاقته بالعباد ورب العباد .

واسمع إليه في هذا الدعاء الجامع : «اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق . أحيني ما علمت الحياة خيراً لي . وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي .

اللهم إنني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب ، وأسألك النصد في الفقر والغنى وأسألك نعيماً لا ينفد . وأسألك قرة عين لا تنقطع . . وأسألك الرضا بعد القضاء . وأسألك برد العيش بعد الموت . وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك ، في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة» .

«اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين . . .»

ومن مجون الناس أن يقول فريق منهم : كان محمد مدعياً للنبوّة . . وَيُحْكَمُ !!! فأين الصدق إذن؟

إن فم بشر من أزل الدنيا إلى أبدها لم ينج الله بأشرف من هذا الكلم ، ولم يتوجه إليه
بأحر من هذه الضراعة : من يكون صادقاً إن كان محمد مزوراً؟

والواقع أن المكذبين لمحمد في درك من العجز الفكري والروحي يعيى العلماء ، إن
تحديثهم عن محمد كتحديث الهوام عن الكواكب السيارة ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر
وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾^(١).

(١) سورة فصلت : ٤٤

الحب أساسه والشوق مركبه

محنة البشر أنهم مكلفون بالارتقاء إلى الملأ الأعلى على حين أنهم خلقوا من حمأ مسنون .
وهم ليسوا مكلفين أن يكونوا ملائكة ، فهيئات ما داموا محكومين بأجهزة هذا الجسد
ومطالبه المتجددة .

هم مكلفون أن يقاوموا الإسفاف بالتسامي ، والنسيان بالذكر ، والأثرة بالأخوة .
هم مكلفون - بعدما وهبوا الحياة - أن يجعلوها لله ، فلا تكون أنفسهم شغلهم
الشاغل ، بل يكون واهب الحياة أملهم المائل ، وما فرضه هو مصدر نشاطهم ، وأساس
حراكهم وحماسهم . . . !!

وفي هذا الكلام إجمال يحتاج إلى إيضاح ، إن الملائكة لا تأكل ، ولا تتكلف زرعاً ولا
حصاداً ، والبشر الذين يأكلون يضاهئون الملائكة تماماً لو أنهم زرعوا وحصدوا وأكلوا باسم
الله .

ووقتهم المبذول في ذلك كله يساوى وقت الملائكة المبذول في التسبيح والتحميد إذا هم
لحظوا قدرة الله في الإنبات والإنضاج ، وفضله في الإطعام والكسوة والمأوى . .
وقد بعث الله رسله من بدء الخليقة ليسيروا بالأمم على هذا الدرب ، لم يبعثهم ملائكة ،
لأنه لا علاقة للملائكة بهذا النوع من التكاليف .

وقد عجب الجاهليون من ذلك وقالوا : ﴿أبعث الله بشراً رسولا ﴾ * قل لو كان في الأرض
ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا ﴾ * قل كفى بالله شهيداً بيني
وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴿ (١)

(١) سورة الإسراء : ٩٤ - ٩٦ .

والنبي العربي الخاتم ضرب من نفسه المثل في إمكان أن يعيش البشر على مستوى الملائكة ذكراً لله وشكراً. والأفق الذى رفع الناس إليه لا تلمح فيه إلا صفوف المصلين المسبحين بحمد ربهم ، أو صفوف المجاهدين الذين بذلوا في ذات الله أنفسهم وأموالهم . . نعم إن محمداً أنشأ جيلاً من الناس يباهى الله بهم ملائكته ، لأنهم قطعوا كل الجوانب الأرضية وكل إغراءات هذه الدار العاجلة ، ومشوا وراء نبيهم المتفانى في مرضاة ربه ، الناشد لوجهه وحده ، المرتبط بهذه الكلمات النقية : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴾ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿ (١) .

لا يعرف محمداً صلى الله عليه وسلم من احتبس في سجن الدنيا أو قعد عن نصره الحق والخير .

وينابيع الحياة العاطفية والفكرية في نفس الرسول الكريم «محمد» بن عبد الله تجبىء من معرفته الساطعة بالله ، وذكره الدائم له ، وأخذه بنصيبه الضخم من معانى الكمال في أسمائه الحسنى .

ذلك أن الله خلق آدم على صورته ، واستخلفه في هذه الأرض ليكون نائباً عنه ، ومكنه ، بل كلفه ، أن ينشط في استغلال خيرها وامتلاك أمرها وأوصاه أن يحترم أصله الإلهى العريق ، فلا يتدلى عنه إلى نزعات الطين ووساوس الشياطين .

يجب أن يكون عالماً ماجداً ، قادراً كريماً ، رحيماً منعماً ، وهاباً إلى آخر ما ترمز إليه أسماء الله الحسنى من صفات الكمال ، وشارات العظمة والجمال .

والعالم - من أزلّه إلى أبده - لا يعرف إنساناً استغرق في التأمل العالى ومشى على الأرض وقلبه في السماء ، كما يعرف في سيرة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

إنه خير من حقق في نفسه . وفي الذين حوله حياة الإنسان الكامل .

الإنسان الربانى المستخلف في ملكوت الله ، لينقل إليه أطرافاً من حقيقة هذه الخلافة الكبيرة .

وفي المواريث العقلية والعاطفية التى تركها هذا النبي الكريم ، ترى كل العناصر التى يستطيع بها أى إنسان أن يقوم بوظيفته الصحيحة في الحياة . .

(١) سورة الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣ .

انظر إلى قوة العاطفة ودفقها في هذه المناجاة الحارة :

روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن زيد بن أرقم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول دبر صلاته :

« اللهم ربنا ورب كل شيء » .

« أنا شهيد أنك الرب وحدك ، لا شريك لك » .

« اللهم ربنا ورب كل شيء ، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك »

« اللهم ربنا ورب كل شيء ، أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة » .

« اللهم ربنا ورب كل شيء ، اجعلنى مخلصاً لك وأهلى ، فى كل ساعة من الدنيا والآخرة » .

« يا ذا الجلال والإكرام ، اسمع واستجب » .

« الله الأكبر الأكبر ، نور السموات والأرض » .

« الله الأكبر الأكبر ، حسبى الله ونعم الوكيل » .

« الله الأكبر الأكبر » .

إن ألفاظ اللغة حين تعجز عن ملاحقة هذا الجيشان المنساب فى كل دعوة تجعل الرسول المنيب المتعبد يلجأ إلى التكرار فى العبارة الواحدة لينفس عما استكن فى صدره من روعة ومحبة وإجلال .

إنه فى ظاهره ترداد للفظ واحد ، وهو فى باطنه تعبير عن معان متجددة من الولاء والهيام .

ويستوقفك فى هذا الدعاء أن تتوسط شهادة النبى لشخصه بالرسالة ، بين توحيد الله ، والإقرار بأن العباد كلهم أخوة .

ما معنى أن يقول محمد لربه : « أشهد أن محمداً عبدك ورسولك » ؟

ذلك ضرب من الإصرار على تحمل الأمانة وإبلاغ الرسالة للناس كافة مهما كذبوا بها ، وتذكروا أصحابها .

* * *

أربع وعشرون ساعة من حياة عريضة

لنتأمل في هذه الصورة ، صورة يوم واحد من حياة نبي الإسلام .
لقد صحا من نومه قبل الفجر بيقين . وظلمة الليل لا تزال مخيمة على كل شيء ، إنه يتحرك مع ضلالتع الصبح المقبل قائلا : « الحمد لله الذى رد إلى روحى . وعافانى فى جسدى . وأذن لى بذكره » .

انظر كيف يستقبل الحياة بترحاب وتفاؤل : « الحمد لله الذى رد إلى روحى » .
إن العمر الذى ملكناه نعمة نحمد الله عليها ، وينبغى أن نحسن استغلالها . إن الحياة فرصة النجاح لمن أراد النجاح ، ولذلك امتن الله بالشروق والغروب على عباده : ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾^(١) .

وعظمة الحياة فى العافية . ما أجمل أن يكون المرء سليم البدن ، تنهض أجهزته وعضلاته بوظائفها كلها دون إعياء أو ملال ، إن المسلم عندئذ ينطلق فى كل أفق ليؤدى واجباته باقتدار ورغبة . وذلك سر حمد الله على العافية المتاحة . .

ونقف طويلا عند قول الرسول : « وأذن لى بذكره » . رأيت أدب العبودية فى شمائل العابد الرقيق ؟ إن منحه يومًا جديدًا إيدان له باستئناف العبادة من مطلع الفجر .

ويبدأ العبد الشكور بذكر ربه بكلمات يقطر اليقين والحب من كل حرف فيها ، يقوها فى الصباح والمساء على سواء « اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة ، اللهم أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى ، اللهم احفظنى من بين يدي ومن خلفى وعن يمينى ، وعن شمالى . ومن فوقى . وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » .

(١) سورة غافر : ٦١ .

قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لى : « قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم عالم الغيب والشهادة ، فاطر السموات والأرض ، رب كل شىء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى ، وشر الشيطان وشركه » وفى رواية : « وأن اقترف على نفسى سوءا ، أو أجره إلى مسلم » .

مع طلائع اليوم المقبل يقول الرسول هو وأصحابه : « أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » .

وإقرار الأصحاب والأتباع أنهم على دين نبيهم محمد ظاهر ، فما معنى أن يقول ذلك النبى نفسه ؟ لقد تكرر فى أدعية كثيرة أن يشهد الرسول لنفسه بالنبوة ، أو بأن محمدا حق .

وأرى أن ذلك لمقاصد حسنة منها : أنه أول ملتزم بتنفيذ ما جاء به ، فكثير من أهل الدين ورؤسائه يحسبون الدين بلاغا للآخرين وتكليفاً . أما هم ففوق المساءلة به .

ومنها مراغمة الكفار والمنكرين الشائئين ، وجعل ذلك حقيقة لا تنال منها الشبهات والأوهام . .

ومنها استشعار نعمة الله على صاحب الرسالة ، وإبراز الرضا والسعادة بها شكراً لله الذى اصطفى .

وقد كان القلب الشريف يحيش بمشاعر التقدير والإعظام لفضل الله منذ يصبح ، وية جم عن ذلك بكلمات رائقة : « اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك رحمة لا شريك لك ، فلك الحمد ، ولك الشكر » .

« اللهم إنى أصبحت منك فى نعمة وعافية وستر ، فأتم نعمتك على وعافيتك ، وسترى فى الدنيا والآخرة » .

وروى أبو هريرة أن رسول الله قال : « ما من رجل ينتبه من نومه فيقول : الحمد لله الذى خلق النوم واليقظة ، الحمد لله الذى بعثنى سالماً سوياً ، أشهد أن الله يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير . . إلا قال الله تعالى : صدق عبدى » . .

وجميل أن يثنى المرء على مالك الملك ، فيستمع الله إلى الثناء المهدى ، ويقبله بالتصديق ، ونسبة القائل إلى عبادته . يقول عنه : صدق عبدى . .

وعن أبى مالك الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أصبح أحدكم فليقل : أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين ، اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم ، فتحه

ونصره ونوره وبركته وهدهاءه ، وأعوذ بك من شر ما فيه . وشر ما بعده . ثم إذا أمسى فليقل مثل ذلك . إن الناس يعيشون داخل كهف معتم من همومهم الحقيقية ، أو المتخيلة . وإنه لمحزن أن عقولا ذكية لا ترى أبعد من جدران هذا الكهف . وأن قلوباً فياضة بالأسى لا تحس إلا ظلمته . وضيقه .

إن الرسول العارف بربه يستنكر هذا الانقطاع المخزى فيقول : « ما من صباح يصبح العباد إلا مناد ينادى : سبحان الملك القدوس - وفي رواية - إلا صرخ صارخ : أيها الخلائق سبحوا الملك القدوس » .

أكاد أقول : إن فؤاد محمد وحده ، وهو الذى أصاخ إلى صوت الصارخ المهيب بالبشر أن يسزقوا حجب الغفلة ، وأن يثوبوا إلى الملك القدوس . . . وافتنانه صلى الله عليه وسلم في التذكير هو أثر استغراقه في الذكر ، ورؤيته لذى الجلال .

وجمهور الفقهاء لا يلزم الأمة بترديد الأذكار والأدعية التى نقلناها ونقلها هنا . إن ترديدها مستحب وحسب ، وهذا صحيح .

بيد أنى أرى طول التأمل في هذه الأذكار والضراعات لا بد منه حين يعتل القلب . وتضعف بالله علاقته ، فإن أثرها قوى في تعريف المرء بربه ، وتبصيره بمعانى الأسماء الحسنى .

إن الإيمان الغامض قليل الجدوى . والإيمان الفاتر أعجز أن يهيمن على السلوك . أو يكبح الهوى .

والواقع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحتلوا في الإيمان مكان القمة . ولم يغيروا التاريخ الإنسانى . وقيموا حكماً مكان حكم . وأخلاقاً مكان أخلاق ، إلا تقربهم من حياة الرسول . واقتباسهم من سناه ، وسريان الإخلاص من قلبه إلى قلوبهم . وحب الله من فؤاده إلى أفئدتهم . .

هذه طباع الناس ، ربما هاج أشواقهم الهامدة شوق حار على ما قيل :

وذو الشوق القديم وإن تسلى مشوق حين يلقى العاشقين

وأرى أن الاستماع إلى النبى وهو يدعو ، واستبطان عواطفه وهو يناجى يشعلان البصائر المنطفئة . ويدفعانها دفعاً إلى الإقبال على الله . . !!

وليكن هذا اللون من الأدعية نافلة، فهناك قدر مفروض من الاتصال بالله يتصل بالمسجد، والصلوات المكتوبات على كل مسلم.

إنه خلال أربع وعشرين ساعة لا بد من الوقوف بين يدي الله خمس مرات، وقد تفترض الجماعة أو تكون سنة مؤكدة، ومكانة المسجد في المجتمع الإسلامي رفيعة، وسوف يستغرب الحديث عنها أناس أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات . .

مع التبس الخيط الأبيض والأسود من الفجر يبدأ الخضر إلى المسجد، وإغراء لذلك يقول الرسول الكريم «بشر المشائين إلى المساجد في ظلم الليل بالنور التام يوم القيامة»: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾^(١) . . . ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا﴾^(٢) . .

وفي المشي إلى المساجد لخضور الجماعات، صح قول الرسول أنه: ما يرفع الإنسان قدمًا ويضع أخرى، إلا كتبت له حسنة، ومحيت عنه سيئة، ورفعت له درجة.

وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى الصلاة بعد سماع الأذان وهو يقول: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصرى نوراً، واجعل من خلفي نوراً ومن أمامي نوراً، اللهم أعطني نوراً».

وقد أعطاه الله ما سأل، فكان: ﴿داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ وليت شعري ما تكون الإنسانية لو خلت من محمد؟ ومن سريره النقية وبصيرته الوضوء؟ ومن رسالته التي غسلت غسلاً ما علق بعقيدة التوحيد من لوثات الأفاكين والمخرفين . .

لقد ارتبط بالمسجد، وجعل تعلق القلوب به أملاً حلواً، وأحيا بسيرته دعاء أبيه إبراهيم لما قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دَعَاءِي﴾^(٣).

لقد تحولت الصلاة في سيرته من تكليف تصحبه المعاناة إلى سعادة تستريح إليها النفس، وهو القائل: «وقرة عيني في الصلاة».

وفي رواية كان إذا دخل المسجد يقول: «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم» قال: فإذا قال- المسلم- ذلك قال الشيطان: حفظ مني سائر اليوم.

(٢) سورة التحريم: ٨.

(١) سورة الحديد: ١٢.

(٣) سورة إبراهيم: ٤٠.

وفي رواية . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد حمد الله تعالى وقال :
« اللهم اغفر لي وافتح لي أبواب رحمتك » . وإذا خرج قال مثل ذلك . وقال : « اللهم افتح لي
أبواب فضلك » .

ما كان أشد حبه للصلاة . كان إذا سمع المؤذن يقول : قد قامت الصلاة يقول : « أقامها
الله وأدامها » .

ونحن مأمورون أن نردد كلمات الأذان ثم ندعو للرسول . وهنا لطيفة يحسن إثباتها . إننا
نقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة ،
وابعثه مقاماً محموداً الذي وعده .

ربما تساءل سائل : لماذا لم تتجانس الكلمات في التعريف ، فيقال : ابعثه المقام المحمود
الذي وعده ؟ والجواب أن النبي فرح بالكلمة التي ذكرها القرآن الكريم وهو يبشر العابد
المتهجد بالجائزة التي تنتظره ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً
محموداً ﴾^(١) .

لقد تشبث بالكلمة المنبئة عن مكانته في الآخرة ، وطلب من أمته أن تدعو الرحمن بسوق
الجائزة وإنجاز الوعد ، ومكافأة قوام الليل الذي تورمت قدماء من طول المناجاة والتلاوة ،
والركوع والسجود .

إن لمحبة الله في قلب هذا الإنسان المتبتل مكانة لا يزمها شيء أبداً .

ولقد ربي - عن طريق المحراب - الرجال الذين قادوا الإنسانية بعده ثقافياً وسياسياً ،
فما رأت الدنيا حضارة أشرف ولا أتقى مما صنع هؤلاء الربانيون من رجال محمد . .

رباهم بوحي قريب العهد بربه ، فإذا الصحراء الغفل تتحول إلى معهد يخرج أعرف
الناس بالقيم والشرائع ، وأحق الناس بالإمامة والسياسة .

كانت القلوب - وهو يقرأ القرآن - تكاد تطير من الروعة والخشوع وكان الأصحاب
يرمقونه وهو يريهم ، فما يملأ أحد عينه منه مهابة وإعزازاً .

ولقد شعر الرسول الخاتم أنه أدى رسالته عندما نظر في مرض الموت إلى المصلين في
المسجد ، فرآهم مقبلين على الله . خالصين للحق ، فاستنار وجهه كأنه صفحة مذهب .

(١) سورة الإسراء : ٧٩ .

ذاك كل ما يريد!! ما يبغى إلا أن يلقي الله بهذا الثمر الحى لجهاده الدءوب .
ترى هل تعود المساجد يوماً مصانع للرجال كما كانت قديماً؟ إن الأماكن متشابهة ،
ولكن السكان . . غير ما نهوى . .
كأن مجنون ليلى كان يصف مشاعرنا عندما قال :
أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نساها

أرق الدعوات بعد الطعام والشراب

والمرسلون بشر لا بد لهم من تغذية رتيبة ، ودعك من تساؤل المشركين :
﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق﴾؟ تساؤل غبى فالأكل لا يستغنى
عنه جسد ، وإلا فكيف يحيا؟

المهم أن نعرف ماذا يأكل؟ وكيف؟

إن الذين يعيشون لغرض ضخم يطوون رغباتهم المادية طيًا في سبيل ما يبتغون ، وتنشأ
لديهم مآرب أخرى قد تذهلهم عن أشهى المتاع .

إننا في عصر تظله حضارة مادية بادية الלהفة على اللذات العاجلة . وقد يقبل الشرفاء
فيها أن يقوموا بتضحية ما لقاء أمر عظيم ، بيد أنهم لا يرون ذلك الغاية التي يسعون لها .

أما محمد والجيل الذي استمع إليه فنسق آخر من الفكر العالى .

واسمع إلى هذا الخبر: رأى النبى عمر بن الخطاب وعليه ثوب بدا وكأنه جميل ، فقال
له : أجد يد هذا أم غسيل؟ فقال : بل غسيل . فقال له الرسول داعيًا : «البس جديدًا ،
وعش حميدًا . ومت شهيدًا» .

القتل في سبيل الله إحدى شارات السعادة التى طلبت لعمر مع العيش الحميد ،
والثوب الجديد . .

هكذا اختلطت لذات الدنيا والآخرة في وعيهم وأملهم ، أفترى أولئك الرجال يعيشون
لإقامة المآدب الدسمة؟

إننا لا نحقر طلب الطعام ، فتلك طبيعة البشر . كما بينا . ومن حق الناس أن ينعموا
بضرورات مكفولة ومرفهات كذلك لطيفة . على أن ذلك لا يعنى الشره ، وإلف التمتع .
والجزع من تحمل متاعب الجهاد والحصار .

وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم ذا قدرة مستغربة على العيش الغليظ والمقادير التافهة من الأغذية، ولم يؤثر عنه اكتراث بأطياب الطعام وغاليه، ومع ذلك فما أمر بشطف، ولا حث على زهد، ولا حرم حلالا . . !

وكان حقيقيا بنعمة الله يعظمها ويشكرها ويغالي بها، ويقول: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى في أوله، فإذا نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله فليقل: باسم الله أنه بآخره» .

وكان إذا فرغ من طعامه قال: «الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين» ويقول: «إن الله تعالى ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها» .

إن هناك أناسا يملتون أجوافهم بالطعام والشراب، ثم يمضون لشأنهم ما يدرون أن لله عليهم حقا، إنهم كأية دابة دست فمها في مزودها حتى شبت . . وحسب . . !!

هذا السلوك الخفير لا يليق بمؤمن . وقد كان إمام النبيين - كدأبه أبدا - يفتن في حمد الله بعد الطعام - فما روى عنه قوله: «اللهم أطعمت وسقيت . وأغنيت، وأقنيت، وهديت، وأحييت، فلك الحمد على ما أعطيت» .

وقوله: «الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة» .

وفى رواية كان رسول الله إذا أكل أو شرب قال: «الحمد لله الذى أطعم وسقى . وسد ع . وجعل له مخرجاً» .

أرو: «الحمد لله الذى من علينا . وهدانا، والذى أشبعنا وأروانا، وكل الإحسان آتانا» .

إن هذه البشاشة فى استقبال النعمة، وشكر مسديها الأعلى، لها دلالة يجب إبرازها . فقد كان النبى الخاتم إنسانا بعيدا عن العلل والآفات بل كان جلدا يهزم المصارعين . وفارس معارك يهرع للقاء المغيرين .

والبسطة فى الجسد حين تسد كل ثغرة . وتلبى كل واجب تعد خيرا عظيما .

وصاحب العافية يطل على الدنيا من أرحب آفاقها . ومن حقه أن يتزود من الطعام بما يعين عليها . . ولم يحرم الله مأكلا يمد الجسد بالطاقة أو يبنى ما تهدم من الخلايا فى كدح الحياة الطويل .

ومن زعم غير ذلك فهو يفتري على دين الله، إنما كره الإسلام السرف المتلف، والتشبع المورث للبطنة، والبدانة، وسائر الأمراض.

ولا يختلف الدين والطب في هذه الأمور، وقد حسب النبي عليه الصلاة والسلام عدد المشركين في بدر بين ألف وتسعمائة عندما علم أنهم يذبحون يوماً تسعة، ويوماً عشرةً من الإبل.

وعندما يطعم مائة من الرجال جملاً فإن نصيب كل واحد من اللحم يكفيه ويغنيه. على أن النبي صلى الله عليه وسلم في أحيان كثيرة كان يكتفى بقلقيات وتمرّات، وعندما لم يكن في البيت إلا الخل، قال: «نعم الإدام الخل» وهذه هي الرجولة المرضية القوية لا تستذلها أزمة عارضة، ولا تفقد تماسكها عندما تفقد بعض ما ألفت من زاد، أو متاع.

والبشر آجمعون لا بدّ لهم من نفّض فضلاتهم بعيداً عن العيون، وقد شرع الإسلام تعاليم من الإنقاء والتطهر تليق بما ينبغي للبشر من وضوء وجمال ومروءة.

وقد كان النبي إذا خرج من اخلاء يقول: «غفرانك. الحمد لله الذي أذهب عني الآذي، وعافاني».

ومن ألطف وأجمل ما روى عنه في ذلك: «الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه».

والضمير في الجمل الثلاث يعود على الطعام.

لكن هذه الكلمات وضعها نفر من علماء الطب والأخلاق والبلاغة... فإنها ذكرت فضل الله فيما يسر من طعام شهى، وفيما ادخره البدن من أسباب حياته ونمائه... ثم فيما استبعده هذا البدن من نفايات تضر ولا تسر.

أرأيت أجمل من هذا الحمد، وأرق من هذا السرد؟ إن النبي الإنسان دائم الاستحضار لآلاء الله، مسارع إلى شكرها ما استطاع.

* * *

مجالس النبوة

قد يحتاج المرء إلى العزلة كي يحتفظ بقلبه مشرقاً وفكرة ثاقباً ، وعلماء النفس يقولون : إن مستوى التفكير العالى يهبط عندما يخالط الإنسان الجموع .

وهذا صحيح بالنسبة إلى عظماء البشر العاديين ، أما رسل الله فإنهم يرتفعون بالجماهير ، ولا تهبط بهم الجماهير .

وقد كان من الأصحاب من يشكو أن يقظته العقلية في مجلس الرسول تخبو عندما يعود إلى بيته .

لقد كان محمد عليه الصلاة والسلام لفرط شهوده وقوة علاقته بربه يحول الأرض سماء ، والبشر ملائكة ، فأصحابه من حوله يذكرون الله ويوقرونه ، ويتواصون بعبادته ، وأداء حقوقه . . . !!

وكان رسول الله يمقت مجالس الغافلين ، ويشمئز من كل تجمع خلا من ذكر الله . وفي ذلك يقول : « ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه . إلا قاموا عن مثل جيفة حمار . وكان لهم حسرة » !!

إن المجالس التي يسي فيها الله ، وتنفض عن لغط طويل حول مطالب العيش ، وشهوات الخلق هي مجالس نتنة ، وماذا فيها يستحق الخلود؟ ما يستحق الخلود إلا ما اتصل بالباقي تبارك اسمه . . . !!

وإذا ضم الناس مجلس يخلط بين الدنيا والآخرة فينبغى أن يستبقى خيره في مجلس ويستبعد شره بهذا الاستغفار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، إلا كفر الله له ما كان في مجلسه ذلك » .

وفى حديث آخر «أنه إذا كان فى مجلس خير كان كالطابع له، وإن كان مجلس تخليط كان كفارة له» .

إن الاختلاط بالناس ربما أثار التنافس على الدنيا، ربما أثار حب الظهور، والاستطالة، ربما شغل الأذهان بقضايا تافهة. ربما قطع ما أمر الله به أن يوصل، من أجل ذلك كله جاء عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه : «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا» .

«اللهم متعنا بأسمائنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا» .

كذلك كان النبى يختم مجالسه، فما ينفض الناس عنه قافلين إلى بيوتهم إلا وهم يخوضون فى الرحمة خوفاً .



ليل أبيض

وينتهى سبح النهار الطويل ، وتنقضى الصلوات المكتوبات ، ويخلص كل امرئ بنفسه ، قافلاً إلى بيته ليستحم ويستريح ، فهل ذلك ما يستقبل به محمد الليل الوافد؟ لو أن الفلاسفة الإلهيين يصنعون في نهارهم بعض ما يصنعه محمد في ليله لكفاهم ، وحسبهم كدحاً حسناً .

إن النبي العابد يبدأ بالليل مرحلة جديدة من مراحل الإقبال على الله! وما أكثر ما رواه المحدثون عن أذكاره وأدعيته فعن حذيفة وأبي ذر أن رسول الله كان إذا أوى إلى فراشه قال : «باسمك اللهم أحيأ وأموت» .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقل : باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» .

وهذا الحديث شرح للآية الكريمة : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(١) .

والمؤمن في تدبره للآية والحديث معاً يشعر أن روحه في يد الله ، وأنه يستمد بحياه لحظة بعد أخرى هبة من رب العالمين .

قد يضع جنبه فلا ينهض إلا يوم النشور . فإذا كان ذلك فهو يرجو الرحمة .

وإن قام ليبدأ نهاراً آخر فهو يرجو أن يحيا في ضمان الله وحفظه .

أترى في ذلك المنهج أثارة من اعتداد ، وغرور؟؟

(١) سورة الزمر: ٤٢ .

وعن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : اللهم أسلمت نفسي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وأجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت . . فإن مت مت على الفطرة» .

عندما يغمض المرء جفنه ويتهاون لذكرى يترك إرادته جانباً لغيوبة تطول أو تقصر .
كثيرون يستسلمون للمجهول . أما المؤمن فيسلم نفسه لربه . . يفوض إليه أمره ، ويلجئ إليه ظهره . . !

إنه وحده الحافظ ، من غيره يؤمل ؟ في دفع ضرر ، أو جلب خير . وقد يفكر المرء وهو يستعد لمنامه في مراجعة ما أصابه طوال يومه من ربح أو خسارة ، وما عرض له من خطأ ، أو صواب . .

والواقع أن الدعوات التي علمنا إياها الرسول الكريم تريح الأعصاب من هذا العناء .
وتصل بمشاعر الرغبة والرهبة إلى مستقرها في جنب الله ، وتجعل المرء قبل هجوعه يؤكد أمراً واحداً يناجي به ربه «آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت» . تلك هي الفطرة التي يستريح المسلم في مهادها الوثير .

وجاء في رواية أخرى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول إذا أوى إلى فراشه :
«اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى . منزل التوراة والإنجيل والقرآن . . أعوذ بك من شر . . أنت آخذ بناصيته .

أنت الأول فليس قبلك شيء . وأنت الآخر فليس بعدك شيء . وأنت الظاهر فليس فوقك شيء . وأنت الباطن فليس دونك شيء . . اقض عنا الدين . وأغننا من الفقر» .

وفي رواية أخرى عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند مضجعه : «اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم . وكلماتك التامة من شر ما أنت آخذ بناصيته . اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم . . اللهم لا يهزم جندك . ولا يخلف وعدك . ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، سبحانه اللهم وبحمدك» .

وفي رواية أخرى كان يقول : «باسم الله وضعت جنبي ، اللهم اغفر لي ذنبي . واخسئ شيطاني ، وفك رهاني ، واجعلني في الندي الأعلى» .

ونلاحظ في هذه الأدعية كلها أن النبي الإنسان لحج بتمجيد الله والتحدث عن عظمته .
وقد قال - وهو يتأهب للنوم - كلاماً لا يستطيعه غيره مع حدة الانتباه وتآلق الذهن .
صور به الألوهية في كلماتها المطلق . وغناها الذي يرنو إليه سائر الخلق . .
وهو بعد هذا الشاء الحار يستجمع ذل العباد كلهم ، فيطلب حصناً من الفقر .
والدين ، والإثم . ووساوس الشيطان . .
ويطلب المغفرة ، والفكاك من كل قيد أرضى يشده إلى هذه الدنيا . . لأنه ينشد
الانضمام إلى الندى الأعلى ، إلى الرفيق الأعلى ، إلى من في السماء . . !!
إنه ما بقى في الأرض ، أى ما بقى بين الناس لا يريد أن تشينه آفات الحياة ، لا يريد أن
يسوءه أحد ، ومن ثم فهو يكره الفاقة والرذيلة ، ويود من الدنيا ما يرشحه لآخرة رفيعة
القدر . .

ولا تحسبن أنه - عليه الصلاة والسلام - يأخذه النعاس العميق بعد هذه الضراعات
التي ناجى بها ربه ، لا . . ما هى إلا ساعة ثم يستيقظ ليلبى أمر الله باستئناف التسبيح
والتحميد ، فى جنح الليل كما كان يصنع آناء النهار .
ألم يقل الله له ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾ ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً
طويلاً ﴿^(١)﴾ .

إن قيام الليل فرض عليه وحده . . لينم من ينام ، أما هو فقد قيل له : ﴿قم الليل إلا
قليلاً﴾ نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ﴿^(٢)﴾ .
والمأثور من سيرته الشريفة أنه كان يقوم بالقرآن أوقاتاً متطاولة . .

وحدث وهو فى أخريات الحلقة السادسة من عمره أن قام يصلى - وكان فى البيت
عبدالله بن عباس وهو شاب فى أوائل الصبا - رأى أن يأتى بالرسول العابد . وشرع الرسول
يقرأ ويقرأ والشاب القوى يكابد طول القيام . ويرقب انتهاء الصلاة . . لكن روح العابد
المتبتل قهر الشيخوخة ومضى يختم سورة ، ويبدأ أخرى . . قال ابن عباس : لقد هممت أن
أتركه يصلى وحده ، وأنصرف . .

لقد تورمت قدماه من طول الانتصاب الخاشع بين يدي رب العالمين لكن الفؤاد العامر

(١) سورة الإنسان : ٢٥-٢٦ .

(٢) سورة المزمل : ٢-٣-٤ .

بالحب أرهق الجسد الزاحف إلى الستين فهو لا يحس وخز الألم قدر ما يحس سعادة الاستغراق . وحلاوة العبادة . وكما قيل :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام
وقد يستيقظ من الليل ويرمى ببصره إلى الأفق ، ويشعر بأن هذا السكون السائد له ما بعده .

إن الناس سوف يصبحون بين بك وضاحك ، وحى وهالك . ومهتد وضال ، وواجد وفارق . . . !!

إن الأقدار تعد لهم مع الغد المنتظر أشياء كثيرة ، ترى ما الموقف منها؟
إنه يقول : «سبحان الله ماذا أنزل من الفتن؟ وماذا فتح من الخزائن أيقظوا صواحب الحجر- يعنى نساءه- يارب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة» .

إنه يستعد لليوم الجديد قبل أن يحىء بخيره وشره ، يستعد له بعبادة يحشد لها أهل بيته ، ينبغي أن يقمن الليل معه . وأن يتهيان لليوم الآخر .
إنه يوم يقلب الأوضاع المألوفة في عالمنا هذا ، رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة . ورب صعلوك هنا يكون ملكا هناك .

إن الآخرة هى دار الحق ، ولها يجب الاستعداد .

وقد ينام بعد ذلك ولكن القلب المفعم بالتقوى يقظان ، فإذا تقلب في فراشه ، أو تهيأ لقيام ليله قال : «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن . لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق . وقولك الحق ، ولقدؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق . ومحمد حق . والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت . وما أسررت وما أعلنت أنت إلهى لا إله إلا أنت» .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرغب أمتة في استقبال الليل بكيان نقى نظيف فيقول : «طهروا هذه الأجساد طهركم الله تعالى فإنه لا يبيت أحد طاهرا إلا بات في شعاره ملك يقول : اللهم اغفر له فإنه بات طاهرا . . .» .

وطهارة البدن لا تغنى عن زكاة الروح ، والمرء يعان على ليل طيب إذا دلف إلى فراشه .
وقلبه مع ربه ، وذكره على لسانه ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، قال له ولفاطمة رضى الله عنهما : «إذا أويتما إلى فراشكما ، أو إذا أخذتما
مضاجعكما فكبرا ثلاثاً وثلاثين ، وسبحا ثلاثاً وثلاثين . واحمدا ثلاثاً وثلاثين» . وفى رواية
التسييح : «أربعاً وثلاثين» قال على فما تركته منذ سمعته من رسول الله قيل له : ولا ليلة
صفين ؟ قال : ولا ليلة صفين .

لقد بقى على هذا الأدب مع الله ورسوله نيّفاً وثلاثين سنة حتى ليلة المعركة الرهيبة بينه
وبين عدوه .

وكان على كثير اُهموم ، بعدت عنه الراحة فى هذه الدنيا ، فلم يشعر بطعمها إلا يوم
ذهب إلى ربه . وقد علقت عائشة على موته المؤلم بهذا البيت :

فألقت عصاها ، واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

لكن اُهموم لم تذهله عن ذكر الله قبل كل منام . بل لعله كان يهزمها ويفلّ حدها بهذا
الذكر الموصول . .

وفى ترغيب الأمة كلها فى طهارة البدن والروح لاستقبال الليل جاء عن أبى أمامة رضى
الله عنه سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «من أوى إلى فراشه ضاهراً ، وذكر الله
عز وجل حتى يدركه النعاس ، لم يتقلب ساعة من الليل يسأل الله عز وجل فيها خيراً من
خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه» .

وعن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه قال :
«اللهم أمتنعنى بسمعى وبصرى ، واجعلهما الوارث منى ، وانصرنى على عدوى ، وأرنى منه
ثأرى . اللهم إنى أعوذ بك من غلبة الدين ، ومن الجوع فإنه بثس الضجيع» .

فى هذا الحديث يرجو الرسول ربه أن يقيه سليم الخواس طوال عمره ، وأن يمتعته
بسمعه وبصره إلى أن يموت ، كما يدعو النجاة من غلبة الديون وسطوة الجوع .

إن هذا النبى الإنسان ينشد الحياة القوية العزيزة البعيدة عن متاعب البأساء والضراء .
وهذا حق كل إنسان صحيح الفطرة ، ودعك من كذبة المتدينين الذين يرحبون بالآلام كأنها
غاية تقصد لذاتها ، أو كأن الدين حرب على السلامة والكرامة .

وفي هذه الكلمات دعوة نريد تفسيرها وتحديد معناها . ونسأل قبل ذلك : هل بين الرسول وبين أحد من الناس عداوة شخصية ؟ كلا . فقد كان أسلمح الناس بحقه الخاص . وما كان يبيجه إلا أن تستباح حقوق الله . فيتصب حينئذ للدفاع عنها كأنه أسد غضوب . . .

وهو عندما يسأل الله أن ينصره على عدوه فإنما يشرح بهذا السؤال قوله تعالى : ﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ^(١) .

إن الكافرين يتركون في أفئدة المؤمنين جراحاً دائمة . خصوصاً المؤمنين الضعاف الذين جناحهم جبروت القوة فمزق شملهم . وأذل جانبهم . وضيق عليهم الدنيا الواسعة . فهي في أعينهم كسم الخياط . . . !!!

من حق هؤلاء المؤمنين المقهورين أن يروا ثأرهم من عدوهم . وأن يروا كبرياء الكفر ممرغة في التراب . . !

وذاك سر الأمر بقتالهم إلى أن تذهب دولتهم : ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ * ويذهب غيظ قلوبهم ﴿ ^(٢) .

إن للفتنة الإنسانية معالم ثابتة لا يسوغ محوها . ولا جهلها .

وهناك تدين مخبول . يؤخر العقل . ويجور على الطباع السليمة . ويتجاوز منطقها . وهذا التدين يرفضه الإسلام . .

ولعل من احترام الفطرة وتلبية أشواقها ما جاء عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما كان رسول الله - منذ صحبتته حتى فارق الدنيا - ينام حتى يتعوذ من الجبن والكسل . والسامة . والبخل . وسوء الكبر . وسوء المنظر في الأهل والمال . وعذاب القبر . ومن الشيطان وشركه » .

وينام الرسول في هذا الليل الحى بالطهر والذكر . وما هي إلا ساعة حتى يصحو لصلاة الفجر . ويستعد لاستقبال أربع وعشرين ساعة أخرى .

يستقبلها بهذا الدعاء : « أصبحنا وأصبح الملك لله . والحمد لله لا شريك له . لا إله إلا هو . وإليه النشور » . .

(١) سورة البقرة : ٢٨٦ .

(٢) سورة التوبة : ١٤ - ١٥ .

في خضم الحياة

محمد- عليه الصلاة والسلام- يعرف الله ويعرف الناس به، يذكر الله ويشكره، ويجدو قوافل الذاكرين والشاكرين، فيلهب حماسهم إذا فترا، ويقيمهم على النهج إذا انصرفوا.

بل لقد أنشأهم إنشاء من جاهلية طامسة، فعلموا من ربهم! وكيف يحيون له على ظهر الأرض وبما يعودون إليه يوم تفتح لهم أبواب السماء:

وليست العلاقة بالله ساعة مناجاة في الصباح أو المساء ينطلق المرء بعدها في أرجاء الدنيا يفعل ما يريد. كلا، هذا، تدين مغشوش.

الذين الحق أن يراقب المرء ربه حيثما كان، وأن يقيد مسالكه بأوامره، ونواهيه، وأن يشعر بضعفه البشري، فيستعين بربه في كل ما يعتريه.

وقد كانت سيرة الرسول نسقًا واضحًا في عمق الصلة بالله وشمولها، فما يمكن أن يغفل عن الله في فعل أو ترك..

ومن هنا وجدنا دعواته تتناول شئون الحياة المختلفة، ولهجه بذكر الله يخالط كل ما يضع فيه يده.

كانت العاطفة المشبوبة تجعله يتعرض للمطر أول ما ينزل، يقول: «هذا مطر حديث عهد بربه».

وكان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إليه، فإذا أخذه الرسول قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا». ثم يعطيه أصغر الحاضرين من الولدان..

وكان إذا عصفت الريح قال : «اللهم إننى أسألك خيرها ، وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها . وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به» .
بهذا الشعور الغامر المستوعب يلقي كل شيء ، ويواجه بتعاليم السماء كما أنزلت إليه .
فلننظر في جنات المجتمع الإنسانى لنرى كيف يبينه محمد باسم الله وعلى بركته .

بناء البيت المسلم

قد تكون الغريزة الجنسية باب تمر كبير عندما تستبد بها النزوات العارضة والشهوات
الشريرة. وعندما تتعدى حدود الله وحقوق الناس، عندئذ تعرض صاحبها للعار
وسر...!!

وكل الغرائز التي لا تقفها حدود الشرع والأدب لابد من تهيتها بأصحابها إلى بلاء غليظ،
وقد قال شاعر عربي:

إذا أنت لم تترك طعاماً تحبه ولا مجلساً تدعى إليه الولائد

تجلت عاراً لا يزال يشبه سباب الرجال نثرهم والقصائد

وإن يخلق الله الغرائز الجنسية للسلطان والختل، ولا خلقها ليتعبد بعض الناس بقتلها
والفراغ منها وقد جعل الله للغريزة الجنسية متنفساً سمحاً هو الزواج. وأسأل منها نبع
النود، والرحمة الذي يلطف جو البيت.

وأهاب بالصالحين من عباده أن يتقروا هذه السعادة، ويمرحوا في بحبوها، ولا يمدوا
أعينهم إلى ما وراءها. وأن يوجهوا همهم بعد الزواج إلى تربية الأولاد وكنالة حصرهم
ومستقبلهم. وتكوين جيل صالح مهذب منهم. قال تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا هب
لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾^(١).

والمسلم الحق يهيمه مسلك بنيه نحو ربهم وإخوانهم. وليست وظيفته أن يرحم المجتمع
بأولاد. حبلهم على غار بهم.

وتدبر دعوة إبراهيم: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء﴾^(٢).

(١) سورة الفرقان: ٧٤.

(٢) سورة إبراهيم: ٤٠.

أن الظفر - ولاد يقومون بحقوق الله ربح عظيم ، ومن عظمة الايمان في قلب الخليل أن نكون أمنيته ذرية صالحة .

إن غيره يطلب لذريته الغنى أو الرياسة ، أو ما شاء من متاع الحياة الدنيا .

أما ما وراء ذلك فلا اكتراث به . . لكن أنبياء الله لهم شأن أعلى ، إنهم ميسومون بأمر العقيدة : «أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا تعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون»^(١) .

ويبدأ بناء البيت المسلم باختيار الزوجة الصالحة . ويستعين بالله في ذلك .

وجاء أنه في أول لقاء بينه وبين عروسه يستحب أن يسمى الله تعالى ويأخذ بناصيتها ويقول : بارك الله لكل واحد منا في صاحبه ثم يدعو الله قائلاً : «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه . وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه» .

وما من أحد إلا وفي ضبعه هنات تتطلب الستر والغفران .

ومن رغم أنه رزق الكمال في سائرته جميعاً . ومن رعت أمه تمت فلا يعيبه ظهرو ولا حس . فكذلك زوجة المؤمن في زوجها .

ولو كان الزوجان صديقين فلا بد لدوام الود من غض الطرف وسؤال الله الحفظ .

ومن ميزات الإسلام أنه يجعل المطالب الطبيعية للإنسان مخوفة بذكر الله ، فهو يطعم من جوع ، ويروي من عطش باسم الله .

وهو يسس امرأته كذلك قارناً رغبته باسم ربه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فقضى بينهما ولد لم يضره شيطان أبداً» .

والمرأة تتعرض بداهة للولادة . وهكذا متع الدنيا يعقبها ما يشوبها . .

الآب يتعرض للكدح على أولاده . والأم تتعرض لآلام الحمل والوضع والرضاع وكثيراً ما تتعسر الولادة . وتتحمل الأم عناء بالغاً .

ومن أخير التوجه إلى الله بما يرفع الكرب ، ويزيل الضر مثل : «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين . وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت» .

(١) سورة البقرة : ١٣٣ .

ومثل : «يا حى ي قيوم برحمتك أستغيث» .

و «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» .

وكم لرسول الله من دعوات حافلة بحب الله ، وانتظار فرجه . . . !!!

والعلاقة بين الذكورة والأنوثة تحتاج إلى فضل بيان ، فإن النصرانية ترى من حقيقة التقوى حسم هذه العلاقة وتطلب من الصالحين والصالحات أن يصموا آذانهم عن نداء الغريزة المكظومة .

وقد قام نظام الرهبانية على هذا الأساس ، ولا يزال . .

وعندما نتأمل في هذه القضية نرى أن البعض ضعيف الغريزة فلا يبالي بالحرمان وأن البعض الآخر شديد النزوع ، فهو إما يتخذ وسائل خفية لإشباع نهمته . أو يشتبك في حرب قاسية مع نفسه لا يخرج منها سليم الأعصاب رضى الحكم على الأمور . .

والحكم بأن المرء بلغ حقيقة التقوى في هذه الحالات كلها مرفوض . .

أما الإسلام فقد أباح الزواج ، ويسره ، وجعله من القربات إلى الله .

وعندما يطمئن إلى الضمانات الخلقية عند الرجل يبيح له التعدد . . وإلا منعه .

والغريب أن العالم الغربى - متأثراً بالنصرانية - أثار دخاناً كثيفاً حول تعاليم الإسلام . وأطلق عليها السنة الشغب من كل ناحية .

والأغرب أن هذا العالم الغربى بنى علاقاته الجنسية على فرضى رهيبه ، فالأولاد الذين يؤسدون على فراش المعصية تتفاحش نسبتهن حتى كادوا في بعض الأقطار يقاربون نسبة الأولاد العاديين .

وبالنسبة إلى التعدد ، فإن تنقل الرجل بين لفيف من النساء أمر مفهوم . وقد ذكرت امرأة كيندى - رئيس أمريكا الأسبق - أنه كان لزوجها بين ٢٠٠ و ٣٠٠ صديقة .

والصعاليك في العالم الغربى لا الملوك يستطيعون السطو على مئات الأعراض .

والذى يستحق الدهشة أن يدور الرجل بين جيش من العشيقات دون حرج ، فإذا دار بين بضع زوجات داخل سياج من الأخلاق المحكمة وضع في قفص الاتهام . . من زعماء الغرب الكبار وساسته المشهورين رجل له في ميدان الفاحشة قدم راسخة!! ومع استفاضة حبثه ونسبة اخنا إليه فإن هذا لم يחדش شيئاً من عظمتة . . !

كتب الأستاذ أنيس منصور يقول^(١): لم يكن غريباً أن يصدر في فرنسا كتاب عن نمر السياسة الفرنسية «جورج كلمنصو» (١٨٤١-١٩٢٩). فهذا الرجل خاض معارك سياسية مخيفة، واستطاع أن يتغلب على الجميع، وكان قادراً على أن يتحدث إلى عشرين شخصاً في عشرين موضوعاً في وقت واحد..

ولم يكن أحد يتصور أن هذا الرجل كانت له ثمانمائة عشيقة، وكان له أربعون ابناً غير شرعيين!!

ترى كم الشرعيون الذين نسلهم هذا الذئب؟

يقول أنيس منصور: لكنه عندما علم أن زوجته الأمريكية خانتَه نهض عند منتصف الليل وفتح لها الباب لتَهبط إلى الشارع بقميص النوم!

ونعجب نحن لماذا حرم الرجل على غيره ما استباحه لنفسه..

يقول الصحافي المعلق: كلمنصو- مثل كل الذئاب البشرية- من أكثر الناس احتقاراً للمرأة، ولم يقل أحد في المرأة أسوأ ولا أبشع مما قاله هو، سواء على فراش اللهو، أو على فراش المرض...!!

ومع ذلك فإن مساعد وزير الدفاع الفرنسي أصدر كتاباً عنه، وقادة العالم الغربي يعدونه من قممهم الرفيعة. لماذا؟ لأنه زنى ولم يتزوج...!!

إن الزنى شيء يسير، أما التعدد فمنقصة تهوى بصاحبها ولو كان من العباقر! هذا هو التقليد الذي أرسته الصليبية، وباركته، وتريد إشاعته بيننا!!

لقد ارتفع نبي الإسلام بمعنى الزواج ارتفاعاً يستحق التنويه. فهو ليس سطوة رجل قوى على أنثى ضعيفة.. إنه عقد حر، بدأ وتم بإذن الله وفي ضمانه، وعندما خطب رسول الله الناس في حجة الوداع قال: «اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانات الله. واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

ولهذا العقد طبيعة مادية وروحية، أرضية وسماوية. والبيت القائم عليه عامر بالسكينة والمودة والتراحم..

ولهذا العقد كذلك طبيعة اجتماعية تتيح للنماء البشرى أن يمتد فيه زاكياً مهدياً..

(١) الأهرام ١٣/٩/١٩٧٩.

وقد سمي القرآن هذه الطبائع العتيدة : «حدود الله» لأن الله يريد من أركان البيت أن تكون أركاناً للبر والتقوى . والتعاون المشترك على أعباء الحياة كلها .

ونحن نثبت خطبة يبدأ بها الزواج ، ثم نعقب بذكر دعاء يلازمه عند بدو آثاره . واطراد مبرره مع الزمن . يعلم الناس أن الزواج في دين الله ليس تلاقياً حيوانياً . ولا يفهمه كذلك لا فضعن البرع . .

قال العلماء : يستحب أن يخضب بين عقد الزواج خطبة رقيقة مناسبة . وفضل ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال : علمنا رسول الله خطبة الحاجة : «الحمد لله ، نحمده ونستعينه . ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، من يهد الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . أرسله باحق بشيرا ونذيرا بين يدي الساعة ، من يطع الله ورسوله فقد رشد . ومن عصي فإنه لا ينصر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا» .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣) .

ثم بعد هذا الخطب يعقد الزواج مذكرا الزوج بتقوى الله . وإحسان العشرة . وبقمة حدود الله .

والتدبير في الآيات المختارة يرى أنها تمهد لذلك . وتوجه لتأسيس أسرة يقوى بها الإسلام . وتدعم بها الأمة . فالزواج عقد خطير الآثار .

وتمضي السنون . ويتحول الزوجان إلى والدين . ويضحى كل منهما معلق القلب بنشء وافد يعده امتداد حياته . وتنمو الأسرة فتصير أربعا وثلاثيا . وعشرا .

وحين يمتد الزمن بالآبوين يكبر الصغار ويسيرون في ذات الطريق الذي سلكه من قبلهم ، ترى ما مسلك هذه الأجيال الجديدة بالنسبة إلى من مضى ؟

(١) سورة النساء . ١ .

(٢) سورة آل عمران . ١٠٢ .

(٣) سورة الأحزاب : ٧٠ ، ٧١ .

يقول عز وجل : ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كُرهاً ووضعته كُرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾^(١).

إن جيل الخاضر يحياى الخالق الأعزى ، ويذكر آلاءه على الجيل الماضى ويستنزله فضله على الجيل اللاحق ، تلك هى وظيفة البيت المؤمن ، وربط الناس برهيم ، وحراسة تقاليد العبدية ، والشرف التى وضعها لهم .

فلا عجب إذا كانت حملة العرش تدعو لأهل هذه البيوت المحافظة : ﴿ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾^(٢).

وسنرى أن البيت الأول فى الجمعية الإسلامية ، أعنى بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن فيه من أمهات المؤمنين كان الأسوة الحسنة فى طلب الآخرة وصدق الإقبال على الله .

كان البيت النبوى بيت ترفع على الرفاهة والترف ، وإدمان للذكر والتلاوة ، وقيام الليل يسلاً آناءه بالتجهد ، والثناء على الله .

واحق أن الأسرة الإسلامية أعنى عناصر التربية والتوجيه ، واحتفاظ عليها ضمان للاستقامة ، وسناء الخلق ، وسلامة الوجهة . .

وسنرى بعد قليل كيف كان البيت النبوى منارة اليقين والتقوى فى حياة الأمة الإسلامية كلها . . !!

(١) سورة الأحقاق : ١٥ .

(٢) سورة غافر : ٨٠٧ .

معركة الخبز

يخرج المسلم من بيته ليباشر العمل الذى يؤديه ، إن كان موظفًا فى مكتبه ، وإن كان عاملاً فى مصنعه ، وإن كان تاجراً فى دكانه ، وإن كان فلاحاً فى حقله .

والناس يغدون إلى أعمالهم ، وشتون الرزق مسئولية على أعصابهم . مستحوذة على أفكارهم ، إنهم يريدون الكثير لأنفسهم وأهليهم ، المقل يريد سعة . والموسع يريد مزيداً ، ومآرب الحياة لا تقف عند حد ، والقوى المبذولة وراءها تستنفد الطاقة .

ترى كم تستهلك هذه الساحة من جهود البشر؟ كأن صاحب الرسالة الخاتمة كان يستحضر هذه المشاعر ، وهو يناجى ربه عندما يخرج من بيته يقول : «باسم الله ، توكلت على الله ، اللهم إنى أعوذ بك من أن أزل أو أزل ، أو أضل أو أضل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يجهل على . . .» .

إنه لا يريد غلباً على أحد ، إنه يريد النجاة من الزلل يقع فيه أو يوقع أحداً فيه . إنه يبغي الهدى لنفسه ولغيره ، إنه يستعيذ بالله أن يجهل على أحد أو يجهل عليه طاغ مفتون ، إنه يكره الظلم فى صورته كلها . !! .

بذلك يدعو ربه . ويستمد منه العون . وقد طلب الرسول من كل مسلم عندما يغدو من بيته لما يهيمه من شأنه أن يوثق رباطه بربه ، فعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قال - يعنى إذا خرج من بيته - باسم الله ، توكلت على الله . ولا حول ولا قوة إلا بالله . يقال له : هديت ، وكفيت . ووقيت . . .» .

إن مخالطة الناس تعرض المرء لمشكلات جمة ، وقد يتولد من الاحتكاك شر حارق . واليقظة العقلية مهما كانت حادة لا تغنى عن حماية الله ، وهو سبحانه يقى من اعتمد عليه . ولاذ به .

بل ينبغي للمسلم أن يتهم قواه الذاتية، وأن يرمق باستعطاف العون الأعلى، قائلا . .
كما علمه نبيه: «اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا. وأنت إذا شئت تجعل الحزن -
الصعب سهلا» .

وعندما تضطرب أحوال العيش، وتبرز صعوبات مقلقة، يزداد تشبهه بربه . فعن ابن
عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ما يمنع أحدكم، إذ عسر عليه أمر معيشته، أن
يقول إذا خرج من بيته:

باسم الله على نفسى ومالى ودينى، اللهم أرضنى بقضائك. وبارك فيما قدر لى، حتى
لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت» . .

سبحان الله، أى علم بالنفس البشرية ومتاعبها كان عند هذا الرسول؟ وأى خزائن
ملأى باليقين كان يمنح منها هذا وذاك ليستبقى العلاقة بالله ثابتة هادئة .

عن البراء بن عازب قال: أتى رسول الله رجل يشكو إليه الوحشة . . فقال له رسول الله
صلى الله عليه وسلم: أكثر من أن تقول: «سبحان الملك القدوس، رب الملائكة والروح،
جللت السموات والأرض بالعزة والجبروت» . فقاها الرجل، فذهبت عنه الوحشة .

هذا رجل من أولى الحساسة الذين ينجحون إلى العزلة، ويتطيرون من الخلائق، لعله
من النوع الذى يقول:

وإن امرأ يمسى ويصبح سالماً من الناس - إلا ما جنى - لسعيد

لكن الحياة لا تتظامن لهؤلاء وترضيهم، فهم منها على وجل، وما تنقضى حاجتهم
إليها، وقد ذهب يشكو إلى الرسول هذا الاستيحاش المعنت. فنصح به بذلك الدعاء،
الذى يدفعه دفعا إلى الأنس بالله .

على أن النبي عليه الصلاة والسلام يكره تحول الوحشة إلى عجز، أو أن يكون ذكر الله
ستارا لهزيمة نفسية لا تليق. عن عوف بن مالك، قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بين رجلين، فقال المقضى عليه لما أدبر: حسبى الله ونعم الوكيل . . فقال رسول الله: «إن
الله تعالى يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس - بالعقل والعزم والمثابرة - فإذا غلبك أمر
فقل: حسبى الله ونعم الوكيل» .

إن البصر الثاقب لم تفته حالة الرجل المحكوم عليه، لقد ملكه الفشل فولى يستر ضعفه
واستسلامه بهذه الكلمة: حسبى الله ونعم الوكيل، إنها هنا كلمة حق أريد بها باطل .

عندما قال هذه الكلمة الذين هزموا بالأمس في أحد، ثم أصبحوا يتحاملون على جراحهم، ويحشدون آخر ما لديهم من وسع ليشأروا من مشركي مكة، لم يضعفوا، نعم لما قيل لهم: «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل»^(١). قالوا ليبارك الله في عزيمتهم وبذلهم واستثناهم لجهاد المبطلين . . . للكلمة هنا معناها المحبوب المقبول . . .

وما يجوز أن تقال الكلمة تسلياً بالأمر الواقع، وتداعى عن تغييره، وانتظروا من السماء أن تدافع عنكم لا يدافع عن نفسه .

لأبد لضيق السماء من سعي، لأبد للأمل من عمل . . من أجل ذلك قال عمر: لا يتعد أحدكم عن طلب الرزق ثم يقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهب، ولا فضة . .

على أن الحياة المعاصرة لا تشكو من متوكلين لا يعملون، وإنما تشكو من عاملين لا يتوكلون، فإن الصبغة المادية سادت القارات المعصورة .

والناس يغدون من بيوتهم وهم يتلهفون على صيد ثمين ينقضون عليه . . وإذا أمكنتهم الفرس من مأرب سأل لعابهم لآخره . . إنهم يأكلون، ولا يشبعون، ويشربون، ولا يترقون . .

وفي هذه الحسى لا تعلق للقلب إلا بالمزيد من الحطام . .

فإذا حدث أن استعصى رجل على هذا المنحدر، وتراجعت إلى فواده خصائصه العليا، واستبان وجه ربه وسط، ركاب من ضباب الأهواء، فذكر اسمه، ووحى به، وتشبث بآياته بترجيئاته، فأى ثواب يكون له؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيى ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة» . .

إن هذا الأجر الجزل ليس لألفاظ تترق من الشفاه، إنها لحال من الثقة في الوجود الأعلى، والفضل الأعلى، تجعل الرجل يركن إلى من بيده الخير، فلا يحتال، ولا يغتال . .

(١) سورة آل عمران: ١٧٣ .

وقد أكد الأئمة أن هذه الأجرور الكبيرة لا توضع بإزاء الأعمال الصغيرة، ولا الهضم الصغيرة...!!!

وفى ميدان الارتزاق والكدح للنفس والولدان، قد يختلط الضيب واخييث والنقى والغشوش، والمسلم يعلم أنه لا يدخل الجنة لحم نبت على سحت، وأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً. ومن ثم وجب على المؤمن أن يتحرى، وقد علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء: «اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك، وأغننى بفضلك عمن سواك».

«اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً».

وفى رحمة السيد ربي تعرض المرء ما يسوءه، وربما استغفر السفهاء ليجهل عليهم، أو يثأر لنفسه منهم، وخير له إذا خرج من بيته أن يضمم التجاوز والساحة، روى أنس بن مالك أن رسول الله قال: «أعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم؟» قالوا: ومن أبى ضمضم يا رسول الله؟ قال: «كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد وهبت نفسي وعرضي لك، فلا يشتم من شتمه، ولا يظلم من ظلمه، ولا يضرب من ضربه»!!

وزحام الدنيا غاص بالمشيرات النفسية والاجتماعية، والإقبال عليها ناشب بأعماق النفس، والأمر يحتاج إلى أن نشرح موقف الأنبياء منها، تمهيدا لإيضاح موقف النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام.

الأنبياء بشر أمثالنا، ومناصبهم العالية لا تسقط عنهم مشاق التكليف ولا تريحهم من أعباء الواجبات المفروضة، بل الصحيح أنهم أشد بلاء، وأكثر عناء، وذلك معنى قول العلماء: العصمة لا تمنع المحنة، أى لا تمنع الاختبار، وضروب التمحيص.

كان يوسف بشراً يضيق بالسجن ويتشوق للحرية، يوم قال للسجين الذى يتوقع الإفراج عنه: اذكرنى عند ربك... ولم لا يذكره، وهو برىء مظلوم؟ وهذا السجين الخارج يعرف عن يوسف أنه من النصارى المحسنين... فليحدث عنه الملك الذى سيعمل معه...

وشاء الله أن ينسى السجين الخارج، وأن يبقى يوسف بضع سنين... حتى جاء اليوم المقدور، وأرسل الملك إلى يوسف يستقدمه، ولكن يوسف كان قد بلغ حداً من الاكتمال والتأبى جعله يترى في الاستجابة ويقول: أولاً اعرفوا موقفى من القضية التى اتهمت فيها...!!!

ثم خرج يوسف ليتولى شئون مصر...

وكان موسى بشرًا يحس لذع الغربة في أرض مدين . . . فلما سقى للفتاتين أوى إلى الظل
وجى ربه : ﴿رب إنى لما أنزلت إلی من خیر فقیر﴾^(١) . . .

وجاءه الغوث إذ وجد المأمن المنشود ، عند سيد مدين الذى قال له : ﴿نجوت من القوم
الظالمین﴾^(٢) . ثم تزوج ابنته ، وعاش فى صحبته ، وتهيا للرسالة الضخمة .

وكان لوط بشرًا عندما داخله الحرج الشديد ، لما رأى المجرمين من قومه ينظرون بخسة ،
وشره إلى وفد الملائكة عنده .

لقد تمنى لو كان ذا عصبية يؤدب بها السفلة . حتى طمأنته الملائكة أن مصير القوم
يقترّب .

﴿ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر * فذوقوا عذابی ونذر﴾^(٣) .

إن تعليق النبى الخاتم على بعض ما سقنا من قصص ينبئ عن جانب أخلاقه .

يقول عن لوط : «رحم الله لوطًا ، كان يأوى إلى ركن شديد» . . . يعنى أن الله ما كان
ليتركه ، وما كان له أن يأسى على عصبية مفقودة . .

والواقع أن إحساس محمد بالله وتأييده ، لا نظير له ، ولقد سمي «المتوكل» لهذه الخلّة
البارزة .

إن هذا الاعتماد الفذ على الله هو الذى أمده بالقوة على نشر عقيدته ، وتبليغ رسالته فى
عالم كل شبر منه يتنكر له ، وأول من صرخ فى وجهه يتهدده عمه أبو هب . . ما كانت
توجد ذرة من أمل فى نجاح هذه الدعوة لولا أن صاحبها استند إلى الله ، ومضى إلى غايته ،
لا يثنيه شىء . . .

وتعليقه على كلمة لوط الذى يوحى بالقوة والثقة غير تعليقه على كلمة يوسف الذى
يوحى بالتواضع وهضم النفس إنه يقول : «لو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت
الداعى» . . .

أى لاستعجلت الفرج ، وتركت السجن ، غير منتظر سؤال النسوة وجوابهن المعروف .

إنه هنا - مع تواضعه البادى - يقرر الطبيعة الإنسانية فى التلهف على الحرية ، وكره عالم
السدود ، والقيود . . .

(٢) سورة القصص : ٢٥ .

(١) سورة القصص : ٢٤ .

(٣) سورة القمر ٣٨ ، ٣٩ .

والذى نخلص منه بعد هذا التقديم أن الأنبياء تهزهم المشاعر الفطرية التى تهز جمهرة البشر، وأنهم عندما يقدمون فى مواطن الوغى لا يأخذون أماناً من الموت، وعندما يبذلون المال لا يأخذون ضماناً من الفقر.

إن أخلاقهم العلا تكلفهم كل مغارم العظمة التى يدفعها الآخرون. ويبقى بعد ذلك تفرد المرسلين بأن أوجههم الذى يعيشون فيه لا يسمح لهم أبداً بالتدلى، فهم أركى مكاناً، وأسنى منالاً.

ونتساءل بعدئذ عن علاقة محمد صلى الله عليه وسلم بالدنيا؟ أكان يحبها أم كان يعافها؟

ونجيب: أنه كان يعرف الدنيا معرفة الخير، ويتذوقها تذوق المعافى السليم، بيد أنه كان مشغولاً عنها بما هو أعظم، وأشرف.

إن المجد الإلهى استغرقه، فجعل فى الصلاة قرة عينه، وفى الصيام مسرح روحه، وفيما عند الله شغلاً عن كل جاه يسعى إليه طلاب الجاه..

وقد فرض هذا النمط من الحياة على زوجاته، وأفهمهن أن طالبات الدنيا لا مكان لهن عنده: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَمِثْلَ خُلُقٍ لَكُمْ﴾ (١).

ولكنهن شغلن بما عناه، واجتهدن أن يرتفعن إلى مستواه، من الذكر والعبادة وطول الإقبال على الله. عن جويرية أم المؤمنين رضى الله عنها أن النبى خرج من عندها بكرة، حين صلى الصبح، وهى فى مسجدتها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهى جالسة فيه. فقال: «مازلت اليوم على الحالة التى فارقتك عليها؟» - من اعتكاف وتعبد- قالت: نعم..

فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته».

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس».

(١) سورة الأحزاب: ٢٨.

إن سعادته ، وهو يردد هذه الكلمات ، ويستحلى معانيها ، أشهى لديه من امتلاك كل ما أضاءه النهار في دنيا الناس . .

وهب أنه ملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ما عساه يفعل بها ؟ لقد قال : إنه لو كان لديه مثل جبل أحد ذهباً ما مرت عليه ثلاث ليال ، وعنده شيء منه . . كان سيفرقه في حاجات الفقراء ، ولو بقى شيء لرصده لعوارض المسغبة ، والبأساء التي تطرأ على الناس .

ولقد كان يملك الوادى من الشاء والنعم فلا تغيب الشمس إلا وهو فى أيدى العفاة . .
إن حبه كان لشيء آخر ، لله ، لكتابه ، لمناجاته ، لمرضاته . .

واسمع إليه يشرح مشاعره نحو القرآن العظيم : «اللهم أنا عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، وفى قبضتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو ستأثرت به فى مكنون الغيب عندك ، أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلوبى ، وضياء بصرى ، وزهاب حزنى ، وجلاء همى وغمى» . .

إن الوحى أساسه فكيف لا يكون أنيسه الدائم ؟ كان فى سفره يقطع المفاوز ، وهو به يصل ، وفى إقامته كان وعيه نسيجاً من معانيه .

وجاء أنه طلب من الصحابى الكبير عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه القرآن . . !! فقال 'بن مسعود : أقرأ عنيك وعيك أنزل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : «انى أحب أن أسمعك من غيرى» . . ويقرأ عبد الله من أول سورة النساء حتى يصل إلى قوله سبحانه : «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ؟» والتفت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . فإذا عيناه تذرفان . . قال له : «حسبك . .» .

ويواصل الصيام ، فلا يفطر مع الغروب ، ويحاول بعض صحبه أن يقلده فيقول لهم الرسول مانعاً : «إنكم لستم كهيتتى ، إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقنى» .

إن تبثله إلى الله أحدث تغييراً فى كيانه البشرى ، وجعله يتقلل ثقلاً خطيراً من الطعام والشراب . لأنه يحيا فى ملكوت آخر . .

ومع هذا البعد الروحانى الساحق فقد كان يعيش بين الناس خبيراً بطباعهم ، شاعراً بقضاياهم ، يبت فيها باسم الله ، فما ينحرف قيد أنملة عن الصراط المستقيم . .

هل يمكننا أن نكون موقفنا نحن من الدنيا على هذا الغرار؟ لا، ما نستطيع ولا كلفنا . .
إن بعض الفقراء والزهاد والمتصوفة حاول أن يخاصم الدنيا، ويعيش على هامشها، وأن
يتشبه برسول الله في سيرتهم المترفعة، وهيئات . .

إن حمرة الخجل لا تصنعها بعض المساحيق المجلوبة . والأزهار الصناعية قد يكون بها
نكهة من الأزهار الطبيعية، بل لعلها أبقي على الأيام . . لكن أين عصارة الحياة، ونعممة
المنس . ونفحة الرائحة الذاتية؟

ربما نام ناس على الحصير فانطبت عيدانه في جلودهم . . هل يمنحهم ذلك شيئاً
بالرسول الذى رمق الدنيا بنظرة غائبة لأن فؤاده حاضر مع ربه . يقظان في حضرته،
مستغرق في شهوده؟ إن الرجل لا يكون قائداً لأنه عثر على بدلة قائد فلبسها . .

إن لجمهور الناس موقفاً من الدنيا شرحه الرسول لهم، نحب أن يعرفوه، وحسبهم شرفاً
أن يلتزموه . .

كان لقارون دنيا عريضة وتراء يشد إليه العيون، وكان عشاق الحياة ينظرون إليه
ويقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون . .

ولم يطلب الله من قارون تطليق هذه الدنيا، لقد طلب إليه أموراً تعد على الأصابع . .
من مولك وكان يمكن أن تحيا صعلوكاً؟

انه الله . . إذن انظر إلى مالك وقل: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله . . بيد أن المغرور
قال: عبقريتي هي سر غدي . . وثو فرضنا جدلاً أن هذا القول صحيح فمن الذى منحك
الذكاء . والمضاء؟

إنه الله، ولكن الغافل لا يحس . .

إن الله عندما يعطى يطلب الاعتراف بعبثائه فهل هذا تكليف صعب؟

وهو يطلب من آخذ فضله أن يرحم ولا يقسو، وأن يعتدل ولا يطغى، وأن يصلح ولا
يفسد، وقد قال لقارون: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا
وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾^(١).

(١) سورة لقصص: ٧٧.

ولكن المؤسف أن ناسًا كثيرين يمنحهم الله الدنيا فيذكرون أنفسهم ولا يكثرثون بغيرهم . ويضاعفون متعهم على حساب الجوع ، ويعصف بأحلامهم الغرور فينظرون إلى الناس من فوق .

وقد حذر الله عباده المؤمنين من هذا الطيش ، وقال لهم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالَكُم وَلَا أَوْلَادَكُم عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ * وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ﴿^(١) .

وفي السيرة الشريفة حث موصول على الصدقة ، وزجر شديد عن الشح . وقد ثبت أن الفلاسفات الكافرة التي أغوت الجماهير ما نبتت ولا نمت إلا في بينات الكزازة . والقسوة ، والآثرة العمياء . .

مع مطمع كل صبح . ومع انطلاق الأحياء في فجاج الأرض يحصلون ويؤثلون ، يذكر النبي للناس هذه الحقائق . عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما : اللهم أعط متفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكًا تلفًا » .

وفي حديث قدسي : «عبدى أنفق أنفق عليك . يد الله ملأى لا تغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يفض ما فى يده . . » .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن النفقة لا تقبل إلا إذا كانت من كسب طيب . وأن الله كلف الرسل خاصة ، والناس عامة أن يتحروا فى معاشهم اخلال وحده ، فقال للآولين : ﴿يَا أَيُّهَا الرِّسَلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ ^(٢) . وقال للآخرين : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ^(٣) .

ونشأ عن هذه التعاليم مجتمع يحنو أغنياؤه على ضعفائه . ويرءون من عبادة المال ، ويرفضون مصادره المريبة . .

وكانت سيرة الرسول أمامهم شعاعًا هاديًا فإن الرسول بإزاء الدنيا والمال كان يجمع بين منقبتى الغنى الشاكر ، والفقر الصابر . .

(١) سورة المنافقون : ٩ ، ١٠ .

(٢) سورة المؤمنون : ٥١ .

(٣) سورة البقرة : ١٧٢ .

نعم فقد كان ذا مال : ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾^(١)، وكان غناه من تجارته الرابحة في مال زوجته خديجة أيام شبابه . ثم كانت أنصبته من الخمس والفىء شيئا طائلا .

لحنه لم يستحوذ على شيء من هذا كله ، بل كان يضعه في حاجات الفقراء ، وربما ظل يعطى ، وظل أهل بيته كذلك حتى يستنفد العطاء كل ما لديهم ، فيمسون . وليس لديهم ما يغنى من جوع . .

والمعروف في سيرته عليه الصلاة والسلام أنه - وهو في مرض الموت - أهمته ذهبيته^(٢) كانت عنده فما استراح حتى وزعت على الفقراء . وتساءل : كيف يلقي الله . وهى عنده؟ والمعروف كذلك أن أملاكه ليست ميراثاً لأهله ، وأقاربه ، لقد وزعت هى الأخرى فى سبيل الله . .

لقد كان يدعو : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً - كفافاً - فلما أثر الرفيق الأعلى ، كان قبل أن يصل إلى السماء أشبه بسكان السماء ، ترفعاً عن مطالب الأرض ، وزينات الدنيا .

(١) سورة الضحى : ٨.

(٢) ذهبيته : تصغير ذهبة والذهب يذكر ويؤنث .

فى السفر والعودة

ما أكثر ما يسافر الناس نشتون مادية أو أدبية ، وللسفر مشقاته التى بذلت جهود كبيرة لتذليلها .

ومع ذلك فإن فراق المرء لبيته وأحبائه ، وتعرضه لتخلف عاداته فى يقظته ومنامه وشرابه وطعامه ، وانطلاقه مع الأقدار إلى موعد مجهول ، لا يدرك بدقة كيف ينتهى ؟ ولا ما بتكشف عنه المستقبل . . ؟ كل ذلك يجعل السفر عملا ذا بال فى حياة أى إنسان . .

وفد سافر النبى عليه الصلاة والسلام مرات فى شبابه الباكر . وأيام عمه . مع خديجة . وبعد البعثة .

وهو يصف مشاعر المسافر ورغباته بصدق ، ويتنهد حاجته إلى الأنيس والمعين ، فيصله بربه بأشرف الذكر ، وألطف الدعاء . .

يقول : « من أراد أن يسافر فليقل لمن تخلف : استودعكم الله الذى لا تضيع ودائعه . . » .

ويشرح ذلك فى حديث آخر . « إن الله إذا استودع شيئا حفظه » .

المهم أنك وأنت راحل عن بيتك تذكر أن هناك من لا يغيب عن البيت أبدا إذا غبت أنت عنه ، وهو الله ، وأنت إذا رجوت الحفاظ على ولدك وأهلك ، وجعلتهما وديعة لديه ، عدت ، وهما على خير حال . .

والسفر غالبا يعرى الإنسان من أقنعة تحجب طبيعته ، ويجرده من آسائيد كانت له ظهيرا إبان إقامته ، ومن ثم فإنه فى فترة ارتحاله يشتد حسه بما يجد ، وبم يفقد .

وأدعية الرسول صلى الله عليه وسلم تتواءم مع هذه الأحوال تواؤما مثيرا . جاء رجل إلى

النبي يقول له : إني أريد سفرا ، زدوني ؟ قال : «زودك الله التقوى» قال : زدني . قال : «وغير ذنبك» . قال زدني قال : «ويسر لك الخير حيث كنت» .

وعن أبي هريرة أن رجلا قال : يا رسول الله إني أريد أن أسافر . . فأوصني . . .
«...» . قال : «يا أيها الذي يمشي على شرف» — مرتفع — فلما ولي الرجل قال : «اللهم اطلو
نه البعد . وهون عليه السفر» .

إن السفر الآن غيره في أيام مضت . لقد مهدت الطرق . وجرت عبيد المركبات الآلية .
وجلس الناس فيها مستريحين تحمئهم الأدوات المبدعة على ظهر الأرض إن شاءوا . وفوق
السحب إن رغبوا .

وتقاصرت الأزمنة فما كان يتم في شهر بشق الأنفس . أضحي ينم في ساعات بجهود
محدودة . .

ومع هذه الراحة الميسرة فإن الأخطار الماثلة في البر والبحر والجو لم تنعدم . وإن تكن
قلت . . !

وما بقيت نسبة ما من المخاطر فإن دخول المرء في هذه النسبة جند . والحديث عم
يذبح المسافرين من غضب وتلف لا ينقطع . ومن هنا فاستغناء الإنسان عن حماية الله
جنون .

إن حوادث الطرق في العالم أجمع لا تزال أفدح من شتى الأوبئة واهميات السيئة . .
والمنايا رصد للفتى حيث سلك . . !!

كل شيء قاتل حين تلقى أجلك

وأدب النبوة في الأسفار يوجه إلى الاحتماء بالله . وارتقاب لطفه . كان عبدالله بن عمر
يقول للرجل إذا أراد سفرا : ادن مني أودعك كما كان رسول الله يودعنا . فيقول : «استودع
الله دينك ، وأمانتك ، وخواتم عملك» .

قال ابن عمر : وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ودع رجلا أخذه بيده . فلا يدعه
حتى يكون الرجل هو الذي يدع يد النبي عليه الصلاة والسلام . .

إننا ببذاء عاطفة جياشة غامرة فالرسول يستبقى يد المسافر في يده . لا يزهده فيه ولا
يتعجله . ويرسلها عندما يشاء المسافر الانطلاق لشأنه . ويدعو الله له بثلاثة أمور . أن

يصون دينه ، وأن يعينه على النهوض بمسئوليّاته التي يرتبط بها ، وأن يجعل ختام أعماله حسناً ، فقد يخطئ أو يعثر ، ولكنه ينهض ، ويصلح أمره كله ، ويتمه على خير .

ما يحتاج المسافر إلى أكثر من ذلك . . اللهم إلا الشعور المتجدد بما يسوق الله من نعم حيناً بعد حين ، وذلك ما أبانه حديث آخر . قال على بن ربيعة : شهدت على بن أبي طالب رضي الله عنه أتى بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله في الركاب قال : باسم الله . فلما استوى على ظهرها قال : الحمد لله ، ثم قال : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين - مخضعين - وإنا إلى ربنا لمنتقلبون ، ثم قال : الحمد لله - ثلاثاً - ثم قال : الله أكبر ثلاثاً . ثم قال : سبحانك اللهم إنني ظلمت نفسي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

ثم ضحك على بن أبي طالب : فقيل : يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت ؟ قال : إنني رأيت النبي فعل مثل ما فعلت ، ثم ضحك . فقلت : يا رسول الله من أي شيء ضحكت ؟ قال : «إن ربك سبحانه وتعالى يعجب من عبده ، إذا قال رب اغفر لي ذنوبي ، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري» .

عندما يذنب العبد فهو يرتكب عملاً فيه قبح ودمامة ، وهذا العمل بالإضافة إلى الله فيه معصية وجراً . فهل يليق بالإنسان أن يسيء إلى نفسه وربه على هذا النحو؟ انه يفعل . مهزوماً أمام شهوة غالبة ، أو منساقاً مع فكرة غبية ، فحتى متى تصرعه أهوائه . ويقوده غباؤه؟

إن الله عز وجل ينتظر أوبة التائب ، وهو يفرح بتوبة عبده ، ويقدر الخطوات التي ترده إلى سيده .

حسن أن يعرف العبد غلظه ، أو يحس قباحتته ، وأن يتراجع خجلان إلى ولي أمره . وولى نعمته . .

البعض يبقى مكانه تحيط به خطيئته ، كجيش انهزم ، وحصره عدوه يريد الإجهاز عليه . . !!

وآخرون يصحون قبل فوات الأوان ، ويحيئون إلى مولاهم يقولون : ﴿ربنا إنا آما فاعفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾^(١) .

لقد ذكر الغافل ، وآب الشارد ، وعلم أن له ربا يؤخذ ويعفو ، ويعاقب ، ويثيب .

(١) سورة آل عمران : ١٦ .

ما كان أنساه وأطغاه . . وها هو ذا قد شعر بعجزه وذله ، وشعر بأن الله وحده هو الذى يسمح عاره ويداوى جراحه . . ليكن ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾^(١) .

إن هؤلاء العائدين أرشد سيرة من مذنبين مصرين ، أو مذنبين يلتمسون العفو من أناس مثليهم . .

وهنا قد نسأل : لماذا يستفتح السفر بهذا الدعاء؟ الحقيقة أن السفر الطويل يحدث هزة نفسية شديدة ، وخصوصاً إذا ترك المرء بعضه ، وانطلق في فجاج الدنيا لا يعرف متى يعود؟ إن هذه الحالة تدنيه من ربه وتقربه بما أسلف من ذنبه ، وتطلق فمه بطلب الرحمة والغفران . .

وفي رواية أخرى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر. يقول بعد التكبير: «اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى . ومن العمل ما ترضى . . اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده ، أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل . اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر ، وسوء المنقلب ، وكآبة المنظر في الأهل والمال . . » .

وإذا رجع - من السفر - قاهن ، وزاد فيهن : «آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون» وجاء أن الرسول وأصحابه خلال السفر - كانوا إذا علوا الثيا كبروا ، وإذا هبطوا سبخوا .
كان القافلة المسافرة كلها في صلاة ، فهي مع الهبوط في الأودية تسبح ساجدة ، ومع الارتقاء على الربى تهتف مكبرة .

أى حياة هذه تجعل من تمجيد الله شغلها ، ومن ذكره ، والثناء عليه الغناء الذى يريح الأعصاب ، ويختصر الزمن . .

إن محمداً حول وجه الأرض إلى ساحة من السماء ، مشحونة بملائكة لا يبشر . . !!
كنت في سفر مع ثلة من الطلاب العرب ، وكانت الطائفة التى تحملنا قد شرعت في الهبوط بعاصمة عربية كبيرة ، وأحسست قلقاً على مستقبل أولئك الشباب بعد نزولهم . قلت : ترى أين يسكنون؟ ومن سيعاشرون؟ ومن من شياطين الأنس يترصد الآن بمقدمهم؟

(١) سورة آل عمران : ١٣٥ .

وبينما أنا في هواجسى ، إذ سمعت أصوات نفر منهم يناجون الله بالدعاء الماثور في هذه الحالات . . فقلت في نفسى : لن يضيعوا . إن شاء الله .

أما هذا الدعاء فقد جاء أن النبى عليه الصلاة والسلام لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها : « اللهم رب السموات السبع وما أظلمن ، والأرضين السبع وما أظلمن . ورب السبطين وما أضلن . ورب الرياح وما أذرين . أسألك خير هذه القرية . وخير أهلها . وخير ما فيها . ونعوذ بك من شرها . وشر أهلها . وشر ما فيها . . . »

وفى رواية أخرى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أشرف على أرض يريد دخولها قال : « اللهم إني أسألك من خير هذه . وخير ما جمعت فيها . وأعوذ بك من شرها . وشر ما جمعت فيها . اللهم ارزقنا حياها . وأعزنا من وبها . وحبينا إلى أهلها . وحبب صالحى أهلها إلينا . . . »

لقد استوعبت هذه الدعوات آمال الغريب النازل ببلى لا يعرفه . وجعلته يتحرك . وهو أو إلى ربه . مفوض إليه أمره . مستريح إلى كفالتة حيثما توجه . . !!

والتوجه إلى الله بطلب الأمان والحماية لم يكن يفارق الرسول فى أى محط ينزل به ويستجم قليلا ثم يستأنف الترحال . والفقر إلى الله صفة ملازمة لكل مؤمن وهو بهذا الموصف يستغنى عن الناس . وينحصر من متاعبهم . عن خولة بنت حكيم سمعت رسول الله يقول : « من نزل منزلا ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . لم يضره شئ حتى يرتحل من منزله ذلك » .

وكتبه الله التامات . ما تكلم الله به فضله على خلقه . من خزائن رحمته . فلا يحتجون بعدها إلى غيره . تدبر قوله تعالى : ﴿ وَنُفِثَتْ كَلِمَةً رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾^(١) . وقوله : ﴿ وَنُفِثَتْ كَلِمَةً رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾^(٢) . والكلمات المعنية تكوينية لا تكليفية . يأذن الله فيها بحياه . وغناه لمن دعاه . ورجاه . !!

وعن عبد الله بن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال : « يا أرض . ربى وربك الله . أعوذ بالله من شرك . وشر ما فيك . وشر ما خلق فيك . وشر ما يدب عليك » .

« أعوذ بك من أسد وأسود - وحش وإنسان - ومن الحية والعقرب . ومن ساكن البلد .

(١) سورة الأعراف : ١٣٧ .

(٢) سورة الأنعام ١١٥ .

ومن والد، وما ولد». الوالد والولد قيل : هما إبليس وذريته : ﴿أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوة﴾^(١). ويجوز الأراذل من أبناء آدم. فأذا هم محذور، والاستعاذة منهم واردة . .

والأرض الفضاء — خصوصاً الصحراء — تكثر فيها الهوام الطائرة والزاحفة. ويتقى ما يختبئ فيها، وما يبدو عليها . .

وعندما يرجع المسافر إلى وطنه وتقر عينه برؤية أحبته ينبغي أن يشكر ربه فيقول : الحمد لله الذي بعمته تتم الصالحات . وهي كلمة تقال في كل ما يسر .

وينبغي أن يقول له أهل بيته : الحمد لله الذي جمع الشمل بك، أو : الحمد لله الذي سلمك . .

وجاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل من غزو فلما دخل استقبلته عائشة رضي الله عنها فأخذت بيده . وفأت . حمد لله الذي نصره وأعزّه وأكرمه . فقد كان الناس يحسون أن رسول الله أعبد الخلق لربه . وأرجاهم لرحمته . وأكثرهم حُجاً بذكره . ومدحه . فلا عجب إذا نابتهم نائبة أن يجيئوا إليه ينشدون دعاءه . ويرقبون الخير معه .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : شكوا الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قحوظ المطر . فأمر بمنبر فوضع له في المصل . ووعد الناس يوماً يخرجون فيه ، فخرج رسول الله حين بدا حاجب الشمس . وقعد على المنبر . فكبر وحمد الله عز وجل ثم قال : «إنكم شكوتهم جدب دياركم . واستنحار المطر بيان زمانه عنكم . وقد أمركم الله سبحانه أن تدعوه ، ووعدكم أن يستجيب لكم» . ثم قال : «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، لا إله إلا الله يفعل ما يريد . اللهم أنت الله لا إله إلا أنت أنت الغني ونحن الفقراء . أنزل علينا الغيث ، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغاً إلى حين» . ثم رفع يديه فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض إبطيه . ثم حول إلى الناس ظهره . وقلب ، أو حول ردائه . وهو رافع يديه . ثم أقبل على الناس . ونزل فصلى ركعتين فأنشأ الله عز وجل سحابة فرعدت وبرقت ، ثم أمطرت بإذن الله تعالى ، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول . فقال : «أشهد أن الله على كل شيء قدير . وأنى عبد الله ورسوله» .

(١) سورة الكهف : ٥٠ .

حدث أن سألتني شاب مغرور: أتعرف الله بدليل عقلي؟ فقلت له وأنا أتضحك: أعرفه عن خبرة حسية . .

قال: ما معنى خبرة حسية؟ قلت: إن اللقيط قد يعرف بالدليل العقلي أن له أباً، وإن كان لم يره . . لكن الابن الشرعى لا يحتاج إلى هذا الاستدلال، لأنه مغمور بحنان أبيه وإحسانه يحسها صباحاً ومساءً، إنه يعرف أباه عن خبرة حسية، كما عبرت لك . .
إننى سألت الله أموراً لا يقدر عليها إلا هو، وأجابنى تبارك اسمه إلى ما طلبت. فكيف لا أعرفه بعد؟

إن الجميل يثمر في الكلب العقور، أفلا يثمر في إنسان عاقل؟
أترى هؤلاء الأصحاب الذين ابتلوا بالجفاف، وهددهم الجذب بهلاك الحرث والنسل؟ لقد مشوا إلى محمد كيما يدعوا ربه، كيما تجمعهم وإياه ساحاً ضراعة، ورجاءز
وأهمهم كما رأيت في صلاة استسقاء ما كادت تنتهى حتى استهل المطر يهمى، ويبشر
بربيع نضير.

بم تصف إيمان هؤلاء بعد ذلك؟ لقد تجاوزوا مرحلة الإيمان النظرى إلى مرحلة أركى وأرقى، إن كل ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم، بعد نزول الغيث: «أشهد أن الله على كل شىء قدير، وأنى عبد الله ورسوله». والشهادة هنا منزلة فوق اليقين المجرد . .

قال لى الشاب المسكين: لقد تعلمنا أن المادة لا تفنى، ولا تستحدث وهو كلام يزلزل الإيمان، لولا حرارة ما أسمع . .

قلت: يا بنى إن الذين كتبوا هذا الكلام ذكروا نصف المعرفة بعد ما حرفوه عن موضعه .
إن رب المادة هو الذى لا يفنى ولا يستحدث، أما أنا وأنت فقد صح لنا وجود بعد أن لم نكن . . أنا وأنت لسنا أزليين . . ترى من أوجدنا فى بطون الأمهات؟ الأبطال الخمسة من الأجهزة اللحمية التى تملأ تجويف البطن؟ أهذه هى التى دفعت الأجنة لتخرج إلى الجو صارخة بعدما حرك الهواء الخارجى رئاتها؟

إننى أحتقر الغباء وكل ما ينتج عنه من أحكام . . فدعنى من مسأخر هؤلاء الماديين . .
ربما ظن الطفل أن تحرك الصورة فى المرآة يحدث من الصورة نفسها أو من سطح المرآة المصقول، وبعد قليل من رشد سوف يدرك أن هذا التحرك يحىء من الجسم الذى يثبت الصورة، لا من الصورة المتوهمة .

وناس كثيرون فى طفولتهم العقلية ينسبون إلى المادة ما لا تعيه ولا تستطيعه، وقد تساءلت: من الذى صنع زخارف البصمات على أطراف الأصابع؟ الجلد نفسه؟ إنه منفعل لا فاعل . .

ولنترك عالم الجسم - على ما به من إبداع - إلى عالم أرقى، من الذى صنع الذكاء والغباء فى عقولنا؟ أو من الذى صنع النزق والأناة فى طباعنا؟ لننظر حولنا إلى «جندى مجهول» قام بهذا العمل الخارج، أنجد أحدا من الناس؟ أنجد عنصرا من العناصر؟

إن الأغبياء يتيهون أنفسهم عن الله عمداً، ويحاولون تجاهل القدرة العليا ببلاهة سمجة . . وليس ذلك هو العجب، بل العجب أن من يفعل ذلك يريد أن يصف نفسه، بالعلم، والتقدم، وألقاب أخرى . . !!

ومن قديم جحد ناس كثيرون عمل الله فى كونه، ونسبوا العمل إلى أقرب مظهر له، كما ينسب الطفل تحرك الصورة فى المرآة . . إلى المرآة . .

قال زين بن خالد الجهنى: صلى بنا رسول الله صلاة الصبح بالحديبية - إثر مطر سقط ليلاً - فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال الله: أصبح من عبادى مؤمن بى، وكافر.

فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب.

وأما من قال: مطرنا بنو كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب.

إن الذين يظنون الأشياء تحدث دون تقدير إلهى وهيمنة عليا - وهم فى دنيانا الآن أكثر - كفار حقاً . .

أما الذين يعرفون أن الله خالق كل شىء، وسائق كل فضل، فهم المؤمنون حقاً . .

وسواء نسبوا العمل إلى الله، أو نسبوه إلى خلقه مجازاً فهم مؤمنون بلا ريب، فمن قال: أنضج الصيف الفاكهة، يقصد أن الحرارة سبب الانضاج، فهو مؤمن ولم يقل نكراً، لأنه عارف أن الله هو الذى أخرج الزرع، وتفضل به على خلقه، إنما الإثم على من خلا من الله قلبه، وفكره ونسب الأشياء إلى أدنى سبب منها، وأبى أن يعترف بألوهيته وراء ما نلمح من أسباب وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم بين الحين والحين يكشف الغطاء عن الأسباب العادية، ويبين قيستها ليربط الناس برهم، ويجعل ذكره بين أعينهم.

والله عز وجل لطفاً منه بعباده قد يحرمهم ما يحتاجون إليه ليسارعوا إلى ساحته طالبين ،
ويسألون ملحين ، فإذا أعطاهم أنعش مشاعر الشكر في أفئدتهم ، وعادوا . وقد ربا
إيمانهم . .

وصلاة الاستسقاء ، والحاجة ، والاستخارة شرعت لذلك . .

وقد رأيت الناس في مكة - إذا تأخر المطر - هرعوا إلى الصلاة . وصاحوا يطلبون النجدة
من السماء ، فما هي إلا أيام حتى ينزل الغيث . .

ولقد رأينا على عهد رسول الله أن الإجابة تعقب السؤال . . ما كاد النبي صلى الله عليه
وسلم يدعو حتى تستهل السماء ، وتبدأ الأنهار تتكون . .

الغريب أنه في شرق أفريقية وغربها وقع جفاف أهللك البلاد والعباد وما فكر أحد في
صلاة استسقاء . لأن الله لا يعرف ولا يقصداً ! وتلك سمات الحضرة المادية . وآثارها كي
تقلها الاستعمار إلى الأقطار التي نكبت به . .

متاعب الدنيا

البشر محكومون بقوانين اللذة والألم ، قد يضعفون مع المتاعب إلى حد الهوان . . وقد يشتدون مع المنافع إلى حد الطغيان . . والمطلوب من المؤمن الكيس ألا يزيغ ، ولا يطغى ، وأن يظل متماسكاً على حاله كليهما . .

وهو ما بقى حياً لن يستريح من اختبار ، وتلك طبيعة الفترة التى نقضيها فى هذه الدنيا .

والآلام تكشف الضعف الإنسانى ، وتدفع العاقل دفعا إلى الوقوف بباب الله يطلب العافية . ويرجو رحمة ربه . ومطلوب من المؤمن أن يلجأ إلى الله فى كل ما ينوبه . ولو كان تافها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ليسترجع أحدكم فى كل شىء حتى فى شسع نعله . فإنها من المصائب» - والشسع رباط الحذاء .

والمقصود من ذلك أن يعول المسلم فى شئونه كلها على معونة الله . وألا يتصور انقضاء شىء منها دون إذنه تعالى . ولو كان لا يلقى له بالا . فإن مصالح المرء صغراها ، وكبرائها سرهونة بالتفوق الأعلى .

فإذا عظم الخطب اشتد إلى الله فزعه ، وطالت ضراعتة . فعن ثوبان أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا راعه شىء قال : «هو الله ، الله ربى لا شريك له» . وكان يعلم أصحابه عند الفزع هذه الكلمات :

«أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه ، وشر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون» .

وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرقا أصابنى فقال : «قل : اللهم غارت النجوم ، وهذأت العيون ، وأنت حى قيوم لا تأخذك

سنة ولا نوم . . يا حى يا قيوم أهدئ ليلي وأتم عيني . فقلتها ، فأذهب الله عز وجل عنى ما كنت أجد . . !!

وظاهر أن الرسول الكريم يتأول آية الكرسي ، أعنى كلماتها الأولى . فيستوقف المرء الفقير إلى النوم . والاستغراق أمام الملك الذى يدبر ما سكن فى الليل والنهار . ولا يغفل لحظة . .

وعندما يقف الإنسان فى إطار ضعفه أمام ذى العزة والملكوت . فإنه يعود ملىء اليدين بالخير . .

وقد أمرنا أن ندعو الله بأسمائه الحسنى ، والله يحب أن يمدح ، ولذلك جاء فى الحديث : «أظوا - أخوا - بيا ذا الجلال والإكرام» .

وقد ذكرنا أن النبى عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بالله ، وأتقاهم له ، وأبصرهم بسجالات أسمائه الحسنى فى آفاق الكون والحياة . وأسرعهم إلى ما تتطلبه من مشاعر الصبر والشكر ، والتحية والحمد . .

ويظهر لمؤرخى السيرة الشريفة أن التجارب التى مر بها قبل البعثة وبعدها أنضجت الكمال الإنسانى فى شخصه إلى حد لا يتكرر فى الدنيا ، على أن أحداً من الخلق - مهما كان قدره - لا يفرض صداقته على الله ، بل الله هو الذى - إذا شاء - أحب واصطفى . .

وعندما يحب ويختار يسوق الأحداث التى ترفع القدر ، وتزيد الأجر ، ويغلب أن تكون جسيمة فادحة تنفى الراحة ، والقرار الناعم . .

ومن هنا بدأ النبى الخاتم حياته يتيماً يحتاج إلى الكافل الحانى ، ولكن الله آواه ، وبدأ حائراً لا يبصر المنهج ، ولا يدرى من حكمة الحياة شيئاً ، ولكن الله علم وهدى . . وبدأ فقيراً يكدح ليحيا ، ويضرب فى أرجاء الأرض ليصون وجهه وعرضه ، ولكن الله أغنى .

وفى صفة هذه البداية وفى تقرير ما يترتب عليها يقول الله تعالى : ﴿ألم يجدك يتيماً فأوى* ووجدك ضالاً فهدى* ووجدك عائلاً فأغنى* فأما اليتيم فلا تقهر* وأما السائل فلا تنهر* وأما بنعمة ربك فحدث﴾^(١) .

والنعمة الوسطى بين هذه النعم الثلاث ، الهدى بعد الضلال - كما عبر السيد وهو يخاطب عبده - احتاجت إلى سورة لتوضحها ، وتكشف حقيقتها . وهى سورة الانشراح ،

(١) سورة الضحى : ١-٦ .

فإن النبي عليه الصلاة والسلام نشأ في بيئة أثقلتها الجاهلية بأنواع التخلف . ومع ما فيها من سوء فهي أزكى وأسلم من البيئات التي ملأها أهل الكتاب بالتزوير والغش .

وقد عاف النبي مآثر الجاهلية . كما رفض شرود النصارى واليهود ، فما عساه يصنع ؟ لا شيء . . . لقد اعتزل بفطرته النقية بعيداً ، ضائقاً بأحواله وأحوال الآخرين ، فهو ما يستطيع أن يسدى لأحد علماً ، ولا لنفسه ، فمن أين له ؟

والإنسان ذو الحسن المرهف تشقيه آزمات الضمير والفكر ، وتجعل الحياة في عينه أضيق من سم الخياط ، وما يعزيه متاع الدنيا كلها لو أتيح له ، كذلك كان محمد حتى فجأه الوحي .

وفي ذلك يقول الله له : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ ؟ بفيض الحقائق الأدبية التي أخمتمها ؟ : ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ انزاح الحمل الثقيل الذي كان يبهطك وأنت مستوحش حائر منقطع ؟ ﴿ الذي أنقض ظهرك ﴾ لقد كنت بهذا الحمل تهرب من المجتمع ، وتأسى لنفسك ولغيرك . وتألم لعجزك ، وغربتك عما حولك . .

ثم اجتباك الله . . . ومن أرفع ممن يختاره رب الأرض والسماء ليهديه ويهدي به العالمين ؟ ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ .

وسنة الحياة كذلك ، الجد والجهد والتصبر يتبعها الثمر : ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ * إن مع العسر يسراً ﴿ .

والمطلوب منك - بعد - إذ فرغت من العمل أن تستأنف العمل . لا مجال للراحة : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ * وإلى ربك فارغب ﴿ (١) .

هكذا رأينا الإيواء بعد اليتيم ، والهداية بعد الحيرة والتوقف ، والغنى بعد العيلة .

والمعاناة التي ظهرت في حياة النبي الخاتم جعلته دقيق الإحساس بالآلام الناس ، فهو يحزن لها ، ويسارع إلى تخفيفها ، أو تخفيفها ، وكان حسه شاملاً لمختلف الآلام المادية والأدبية ، فهو يود أن ينفيها كلها عن حياته ، وحياة غيره . .

ومن الذي يقصد وجهه ويلتمس حماه عند هجوم البأساء والضراء ؟ الله وحده ، إنه الخرز الآمن ، والمأوى الحصين . ومن ثم ذكره ، ودعاه بالخاص ، وأدب .

وهو عندما يجأر بأسماء الله الحسنى يعلم الألوف المؤلفة أن هذا هو الطريق فاسلكوه ،

(١) سورة الانشراح : ١ - ٨ .

هذا هو الأمل فانشدوه : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(١).

إن محمدا ليس كاهنا يقول للمذنبين : تعالوا إلى معترفين أغفر لكم . تعالوا إلى مثقلين مرهقين أخفف عنكم وأرحمكم . . كلا إنه يقول : ادعوا الله معي . ادعوا الله لأنفسكم . وأنا وأنتم ومن في السموات أصفار إن لم يشأ هو أن يجعلنا شيئا . . إنه يجير ولا يجار عليه ، ويحكم لا معقب لحكمه ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرًا فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

ونُشِبَت في هذا المجال جملة من الأدعية التي كان يدعو بها ، ويرغب إلى المؤمنين أن يتقربوا إلى الله بترديدها :

«اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك . والسلامة من كل إثم . والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار» .

«اللهم أحمني رشدی . وأعدني من شر نفسي» .

«اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنه بئس البطانة» .

«اللهم إني أعوذ بك من البرص ، والجنون ، والجذام ، وسيئ الأسقام» .

«اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي ، ومن شر بصري ، ومن شر لسانی ، ومن شر قلبي» .

«اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار ، وعذاب النار ، ومن شر الغنى والفقر» .

«اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق ، والأعمال ، والآهواء» .

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والهرم وعذاب القبر» .

«اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها» .

«اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها» .

(١) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٢) سورة الأنعام : ١٧ .

«اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجأة نقمتك ، وجميع سخطك» .

«اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ، ومن شر ما لم أعمل» .

«اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني» .

«اغفر لي جدي وهزلي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي» .

«اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» .

«اللهم اهدني وسددني» .

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحي والممات ، وضلع الدين ، وغلبة الرجال» .

«اللهم اغفر لي ، وارحمني ، وعافني ، وارزقني» .

«اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» .

«اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء» .

«اللهم اغفر لي ، وارحمني ، واهدني ، وعافني ، وارزقني» .

«اللهم إني أسألك الهدى ، والتقى ، والعفاف ، والغنى» .

«اللهم اغفر لي ذنبي كله ، دقه وجله ، وأوله وآخره ، وعلانيته وسره» .

«اللهم إني أعوذ بك من شر الخلق ، وهم الرزق ، وسوء الخلق» .

«اللهم إني أعوذ بك من الشقاق ، والنفاق ، وسوء الأخلاق» .

«اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وببيدك الخير كله ، علانيته وسره ، ولك الحمد

إنك على كل شيء قدير . اغفر لي ما مضى من ذنوبي ، واعصمني فيما بقي من عمري ، وارزقني أعمالا زاكية ترضى بها عني . وتب علي» .

«اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذل إلا لك ، ومن الخوف إلا منك ،

وأعوذ بك أن أقول زورا ، أو أغشى فجورا ، أو أكون بك مغرورا وأعوذ بك من شماتة الأعداء ، وعضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة ، وفجاءة النعمة» .

«اللهم إني أعوذ بك من العصب، والنصب، وأعوذ بك من وعشاء السفر وسوء المنقب» .

«اللهم إني أعوذ بك من الزيف، والجزع، وأعوذ بك من الطمع في غير مطمع» .
«اللهم إني أعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق» .

«اللهم إني أعوذ بك أن أظلم أو أظلم، أو أبغى أو يبغى علي، أو أطغى أو يطغى عني» .

«اللهم اجعلني لك، ذكراً لك، شكراً لك، مطواعاً لك، محبباً إليك أوها منيباً. رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني. واسلل سخيمة صدري» .

«اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا» .
حسبنا هذا القدر من توجه محمد إلى ربه، وقبل أن نتدبر بعض ما سقنا نسأل: هل في تاريخ القارات الخمس بشر أحب الله تبارك وتعالى بأحر من هذه العواطف؟
هلى في تاريخ القارات الخمس عابد ضارع إلى الله بأخلص من هذه العبارات .
إننا نقول لمن يستغربون اتباعنا لمحمد: هاتوا لنا بشراً مثله، له بالله أزكى من هذه العلاقة، ونحن نتبعه . .

إننا نحن الذين نرثي لمن جهل محمداً أو عاداه، ونستغرب العمى الذى حجبهم عنه . .

إن أفئدة الخلائق - حين تهتدى - وراء فؤاد محمد وهو ينبض بتوحيد الله وتمجيده .
وجوارحها - حين تخضع - وراء كيانه حين يتابع بين ركوعه وسجوده . . تكون فى أزكى أحوالها وأشرفها . . نعم إن الإنسانية الراشدة يمثلها هذا العلم المفرد، الذى تفانى فى ذكر الله وطاعته .

وإذا افترضنا أن كل ما يمتلك قلب المرء دون ربه صنم، سواء فى ذلك المال والهوى وحب النفس، وحب الغير، فإن الإنسان الذى حطم الأصنام كلها، وجعل المرء لله وحده هو محمد . . الذى انحسرت من بصيرته ظلال الأشياء، ولم يبق فيها إلا إجلال الله، وإعظامه . .

وراء ذلك التقى التقى تقف جماهير هائلة من القانتين ، وقلب كل منهم يؤمن على دعائه وهو يهتف بربه : «اللهم اجعلنى لك ، ذكراً لك . شكاراً لك» .

والأدعية التى أثبتناها فى هذا الفصل تشير إلى جملة أمور:

أولها : أن الرسول يكره المرض ، خصوصاً العضال منه ، ومن منا يحب أنواع الحمى والسرطان؟ إيثار العافية فطرة الله فى الأنفس . وما يحب الأوجاع إلا مختل المزاج .

ومن ثم رأينا النبى عليه الصلاة والسلام يدعو ربه طالباً سلامة الخواص والأعضاء ، مستعيناً به من السقام ، والعجز ، والمهرم .

والمعروف من سيرته صلى الله عليه وسلم أنه كان متين البنيان يهزم المصارعين ، ويسير المسافات الشاسعة دون إعياء ، ويحمل أعباء الجهاد دون نكوص . . !!

والمرء يدهش لأناس يجعلون النحافة والشحوب أمارات التقوى ، قد ظهر هذا الخلل بين أختنود أولاً . ثم نقله النصارى إلى عناصر الرهبانية ثم نقله جهلة الصوفية إلى الإسلام .

ونشأ عن ذلك أن البعض اعتبر الفحولة « قدحاً فى الإنسانية أو نقصاً فى السمو الروحى . . كأن المخنثين وأشباههم يصعدون إلى مستوى الملائكة بالضعف الجنسى . .

الواقع أن محمداً كان مثالا عالياً للبشر ، صادقاً مع منطق الطبيعة . عندما سأل الله البعد عن الآفات والعلل ، فإذا عرا المرء شىء بعد ذلك من المتاعب صبر عليه وسلم لله فيما أراد . وقال كما علمنا الله : ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ .

الأمر الثانى : أعين النبى كرهه للفقر والدين ، وشتى الأزمات التى تعكر النصف وتذل النفس ، وعندى أنه من السخف تحبيب العيلة إلى الناس باسم الله .

والفرق بارز بين الكفاية الواجبة ، والزيادة المغرية بالطغيان والعبث وقد يتفاوت حد الكفاية بين شخص وآخر ، والمهم أن صاحب الرسالة كان يسأل الله — كما جاء فى بعض الآثار — عيشاً قاراً ، ورزقاً داراً ، وعملاً باراً . . وكان كثير الدعاء : «ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» .

فإذا عرض حصار ، أو وجب كفاح ، تحمل القلة بجلد ، ولم ينفقد البشاشة .
والأتران . .

وإذا أقبل الكثير صرفه إلى الآخرين بسماحة ورغبة ، وهناك يقين بأن شىء من أعراض

الدنيا لم يملكه ، بل أمره كما جاء في دعائه : «اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسي ، وأهلي ، ومالي ، وولدي ، ومن الماء البارد على الظمأ» . .

الأمر الثالث : هناك ناس يكرهون من فوقهم ويحقرون من دونهم وهذا الصنف السيئ يملأ جنبات المجتمع . وقد أعلن عليه الإسلام حرباً صريحة فقال النبي عليه الصلاة والسلام : «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا . ويعرف لعالمنا حقه» .

والنبي الكريم يلقي الناس بشعور واحد ، إنه لا يريد أن يكون جباراً في الأرض أو ملكاً على العباد ، إنه لا يريد علواً في الأرض ولا فساداً ، وفي الوقت نفسه يجب أن ينجيه الله من استطالة السفهاء . وجور المعتدين . .

من أجل ذلك كثر في دعائه الاستعاذة من الفتن والبغى والغدر والجهل ، وكل ما يחדش كرامة الإنسان الكريم على نفسه . .

ومع ذلك قبل أن يهون في ذات الله ويشتم ويروع . . وكل ما حرص عليه ألا يكون غاضباً منه : « . . إن لم يك بك على غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي» .

وهنا نقرر حقاً للنبي عليه الصلاة والسلام نبهنا إليه . ورغب إلينا فيه هو أن نصلي عليه . . وما معنى الصلاة عليه؟ إنها استرحام مقرون بالثناء . .

أي أن المؤمنين يسألون الله لنبيهم محمد ، علو شأن ، وزيادة فضل كفاء ما أسدى لهم من جميل . وقام به من جهاد . . !!

وقد أمرنا الله أن نصلي على نبيه ، وأخبرنا أنه - تبارك اسمه - يصلي هو وملائكته على هذا النبي الكريم ، كما جاء في القرآن أن الله وملائكته يصلون على المؤمنين ، فما معنى هذه الصلوات؟

ظاهر من الصلاة على المؤمنين أنها توفيق لهم وبركة في سعيهم . وأنها عون من الله لإخراجهم من الحيرة والشroud والمضايق إلى السعة والضياء والاستقامة . وهي نابعة من رحمة الله وفضله . وذلك ما تشير إليه الآية : ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ تحتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً^(١) .

(١) سورة الأحزاب : ٤٣ ، ٤٤ .

ويزداد هذا العطاء للمصابين من أهل الإيمان، الذين يختبرون في أنفسهم وأموالهم. فلا يترققينهم، ولا تنتهي بالله صلتهم، بل يسلمون ويسترجعون: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾^(١).

فإذا كان المؤمنون الصابرون يلقون من الله هذه الحفاوة، فكيف بالإنسان الذي حمل الجهد الأكبر في غرس الإيمان، ووقف دونه يذود شياطين الإنس والجن، وربط حياته بهذه الغاية الشريفة، فلا هم له إلا هداية الناس، ولا فرحة له إلا أن يعبد الله في الأرض؟ إن الملائكة الأعلى يرقبون كفاحه بإعجاب. ويدهشون كيف - وهو الفرد الضعيف المتجرد - هزم المبطين، ومحا جاهليتهم، وأقام دولة التوحيد وأمته الكبرى . .

ذاك معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾^(٢). إن صلاتنا عليه تصديق برسالته وانتصار لها، وولاء لصاحبها، وتحية إعزاز وحب . . إنها الرباط الجامع بين القائد وجنده، أو الإمام وأتباعه على طاعة الله، والتزام نهجه، والبقاء عليه إلى يوم اللقاء الأخير . . !!

ذلك . . وكل شيء في الكون يشارك في التسبيح لله والصلاة له: ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون﴾^(٣)؟

ونحن نؤثر في الصلاة على رسول الله ما ورد من صيغ سهلة واضحة، ونكره الصيغ المتكلفة أو المبهمة التي ألقت لها كتب، وانعقدت مجالس واخترعت للنبي العظيم أسماء ما أنزل الله بها من سلطان . .

وليس المهم ترديد عبارات بليغة وإنما المهم عرفان الجميل للنبي الصالح المصلح، وتقدير الجهاد الذي محاه ظلمات الجاهلية وكشف أشباحها. وأسس دولة للحق أعزت من يستحق العزة، وأهانت من يستحق الهوان . .

هذا هو المعنى الحقيقي للصلاة على النبي . وهو ما رصدت له الأجور المروية في هذه القضية، لا ما يهرف به أدعياء الحب الذين لا يثبتون في الدفاع عن سنة، أو حماية شعيرة . .

(٢) سورة الأحزاب: ٥٦ .

(١) سورة البقرة: ١٥٧ .

(٣) سورة النور: ٤١

نعم في المجاهدين عن الدين والمقدرين لرسوله يساق الحديث : «من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشراً» وحديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله قال : «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم على صلاة» وعن أبي هريرة : «لا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا على فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» .

ولعالم الأرواح سنن فوق ما ندرك في عالم المادة تجعل هذا البلوغ ميسوراً ، ولا نحب أن نوغل في هذه الأمور .

وفيا قرأنا ، ونقرأ من أدعية النبي الكريم نرى طول نفسه في الاستغفار ، كما نرى أن القرآن الكريم نسب إليه ما نسبته هو إلى نفسه من ذنوب غفرت له بفضل الله في معنى ذلك ؟ وماذا صنع مما يؤخذ به ؟

ونحن نجيب على ذلك بهدوء ، فإن صفحة محمد صلى الله عليه وسلم هي أنقى صفحة بين أهل الأرض والسماء ، وما نعرف أحداً تبعته الأبصار في صغره وكبره ، ويقظته ومنامه ، وسره وعلنه ، كي تبعت محمداً وأحصت عليه كل شيء . . .

وماذا قال أعداؤه عنه مما يחדش البطولة أو ينقص المروءة ؟ . . لا شيء . . !!

ما نقم منه الناقمون إلا أن الضربات التي كالحا للباطل ظل يترنح منها إلى آخر الدهر . وأن منهجه في توحيد الله ، وتحشيد الناس على عبادته . لم يقترب منه أحد من الأولين . والآخريين . .

ولم ينسب إليه - ولو بطريق الكذب - ما نسبته أهل الكتاب إلى أنبياء الله من سكر ، وزنى ، وقتل ، وختل . . !!

وأنبياء الله كلهم براء من هذا الاختلاق ، وإمامهم الشامخ محمد بن عبد الله أسمى قدراً ، وأعز مكاناً . . !!

إذن فمِم الاستغفار؟ إن التفاوت بين النفوس كبير جداً ، وذلك أن ما تملك من طاقات مادية وأدبية يختلف اختلافاً واسعاً ، وموقفها ممن وهب لها هو الذي يحدد نجاحها ورسوبها ، أو تقدمها وتأخرها ، ولا عبرة بظاهرة العمل .

إن الأرنب يقدر في لحظات على اجتياز عدة أذرع على حين تستغرق السلحفاة في ذلك أمداً ، ولا مكان للومها على بطئها إذا كانت قد بذلت وسعها . .

والبشر ليسوا سواء في همهم ونظراتهم وإمكاناتهم وهو مسئولون أمام الله على قدر ما

وهب لهم من تلك الأنصبة، ومعنى ذلك أنه قد يقبل من أحدهم ما يرفض من الآخر.
ولعل ذلك معنى قول أبى الطيب :

ويختلف الرزقان، والفعل واحد إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا
نعم. قد تكون الحسنة من هذا سيئة من ذاك، لبعد ما لدى كليهما من مواهب عقلية
وحسية، ولذلك قالوا:

«حسنات الأبرار سيئات المقربين»!!!

والواقع أن ما يقبل من شخص عادى قد يعد هنة من رجل عبقرى. ومن هنا يمكن
القول بأن ما ينسب - حيناً - إلى الأنبياء من ذنوب إنما هو على مقدار درجاتهم، وإن هذه
الذنوب ليست ما يواقع العامة من كبائر أو يتلوثون به من أحوال. .
وقد كتب الأستاذ العقاد مقالاً عن المقاييس الأدبية جاء فيه أنه ينبغى فى بعض الأحوال
النظر إلى من قال لا إلى ما قيل. . فإن أبا العلاء المعرى عندما ينشد:

تعب كلها الحياة فما أعـ جب إلا من راغب فى ازدياد

فإنه لا يعنى ما يعنيه الجمالون فى محطات السكة الحديد، أو ما يعنيه الفلاحون. وهم
ينقلون الأتربة، والبذور. .

وهذا كلام حسن. ومن السخف تصور المرسلين يقتربون خطايا الدهماء إن ما
يستغفرون له من أخطاء شىء آخر يتفق مع معادتهم المنتقة.

والنسبة أمر لا بد منه، فركاب الطائرات قد ينظرون من مكانهم العالى إلى ركاب
القطارات، ولكن ركاب السفن الفضائية يضحكون من ركاب الطائرات. . ويأخذ الأمر
صفة أخرى عند سكان الكواكب. .

على أن هناك منطقاً آخر يتمم هذه النظرة التى شرحناها فيما ينسب إلى الأنبياء من
ذنوب. . إن الإنسان الواحد - فيما يمر به من أطوار الكمال - يمكن أن يكون عدة أناس. .
إنه يرقى من سماء إلى سماء وحاله فى الأولى أدنى من حاله فى الأخرى، وهو - إذ ينظر إلى
دنوها بالنسبة إلى ما صار إليه - يستغفر ربه، ويستصغر ما قدم له، ويعده فعلاً رديئاً ما
كان ينبغى منه، وكلما مضى فى معراج الارتقاء. وتكشف له من آيات الجمال الأعلى ازداد
ولها بالتمجيد والتحميد، وازداد كذلك لهجاً بالتوبة والاستغفار. .

ونحن على صعيدنا القريب عندما نرمق محمدًا صلى الله عليه وسلم في عبادته وقيادته نرى أنه في فلكه العالى يرتفع من أفق إلى أفق، فأيات القرآن تزيد يوما بعد يوم، ومراحل الجهاد تطرد مرحلة بعد مرحلة، وأعباء الهداية العامة تشتد وطأتها، وتنداح دائرتها .

إن الذى صاح على الصفا يدعو عشيرته الأقربين أخذ يكاتب ملوك العصر وجباية الأرض . . . والذى خاصم نفراً يعدون على الأصابع أول أمره شرع يعد الجيوش لمقارعة الضلال وكسر كبريائه . . . ولمن هذه المعاناة الموصولة في جهاد النفس وجهاد الناس؟ لله وحده . . .

لقد قام الليل إلا قليلا من أول أيام البعثة . . . ومضى على الدرب الطويل يواصل الصلاة والصيام والعطاء، ويقاوم الوثنية والخرافات وعوج الجهال والمتعلمين . . . هل استراح يوما؟ كلا . . . كلما شعر أن الله اختاره لهذه الرسالة أفنى قواه في البلاغ والجهاد، وحطم العوائق ومضى في إعلاء اسم الله، فلا عجب إذ تنزل عليه قبيل الفتح الأكبر: ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك﴾^(١).

إن الغفران هنا ليس لذنوب واقعة أو متوقعة، وإنما هو تبشير المجاهد في سبيل ربه بأنه نجح فيما كلف به، وأن الشعور بالتقصير أو العجز عن الوفاء بحقوق الله كما يحسها القائد الضخم أمر متجاوز عنه.

لا ذنوب هنا مما يآلف العوام، إنما هو إحساس نبي الأنبياء، بأنه - وإن آذاب نفسه في مرضاة ربه - فهو مقصر في حقه، متحلف عن أداء واجباته العظام . . . من أجل ذلك كرمه الله، وساق له البشرى . . .

وعندما يقول الله لعبد: غفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فليس معنى هذا إسقاط التكاليف، وإعطاء المرء حرية أن يفعل أو يترك . . . هذا فهم بادي السوء والغفلة، وإنما المراد أن العبد بلغ مستوى من الرفعة لن ينحدر عنه، وأن مستقبله لن يكون إلا امتدادا لحاضر طيب موصول بالله مراقب له . . .

وقد وعد الرسول بهذه المغفرة الشاملة، كما أن الرسول بشر بهذه المكانة أهل بدر، وعثمان ابن عفان لما أعطى مالا ضخما في غزوة العسرة.

(١) سورة الفتح: ٢٠، ١.

وفى الصحيح أن الله بشر بهذه المنزلة الرجل التائب الذى يستغفر الله من قلبه فى أعقاب ذنبه قائلاً : «علم عبرى أن له ربا يغفر الذنب ويؤاخذ به . . افعل ما شئت فقد غفرت لك» . .

إن المفهوم من هذا أن الله يكتب للعبد حقه أو صفته من الحال الثابتة التى بلغها فى حياته . ويسجلها له قبل وفاته . لأنه يعلم منه أنه لن يتعرض بعدها لنكسة . .

هل الدعاء من الأسباب العادية؟

نستطيع أن نقول : نعم إذا تصورنا القضية ليست أكثر من استعانة عاجز بقادر . .
إن الولد عندما يقول لأبيه : هات لي كذا مما يؤمل ويجب ، فهو يستعمل السبب المتاح
له ، أى الوالد المحب ، وإن كان بوسائله الخاصة لا يقدر .

والأنبياء عندما لجئوا إلى الله يدفعون به أذى الكافرين كان الدعاء سببهم العادى :
﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرْ ﴾ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر*
ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر* وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد
قدر . . ﴿ (١) ﴾ .

وليس كلامنا الآن فى هذا المنحى . وإنما نقصد ما روى فى الصحاح من أذكار ورقى
يردها المؤمنون فى أوقات معينة . أو فى أوجاع وأحوال يضيفون بها ويستعينون بالله لدفعها .
ثبت فى الصحاح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أخذ مضجعه — استعد للنوم —
نفث فى يديه . وقرأ المعوذتين ومسح بهما جسده . .

وفى رواية كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه . ثم نفث فيهما . وقرأ فيهما : ﴿ قل
هو الله أحد . . ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق . . ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس . . ﴾ ثم مسح
بهما ما استطاع من جسده . يبدأ بهما على رأسه ، ووجهه ، وما أقبل من جسده . يفعل ذلك
ثلاث مرات .

قال رجال اللغة : النفث نفخ لطيف بلا ريق .

إن هذه السور الثلاث تحتوى على توحيد الله . وعلى تمام تنزيهه . ثم تدفع بالمرء فى
أحضان العناية العليا متحصناً من جميع الشرور المادية والمعنوية التى ترعجه .

(١) سورة القمر : ٩ - ١٢ .

وهناك رقى كثيرة منشير إلى بعضها يستشفى بها المسلم من الأوجاع التى تتنابه ،
واتصالها بعالم الغيبيات واضح ، إذ لا يدرى العقل سر النفث ولا سر العدد الوارد .

وأجدنى هنا مسوقاً إلى ذكر حقائق طبية مقررة تقفنا هى الأخرى على حافة عالم الغيب
متحيرين . إن الجراثيم التى تحمل العلل قد تهاجم بعض الأجسام بضراوة . على حين نفعد
شراستها حين تتصل بأجسام أخرى ، فها تمسها بأذى يذكر . !!

وأحيانا تشد وطأة الجراثيم الهاجمة ، ومع ذلك تستقبلها من الجسم مناعة غريبة . .
وربما حمل الإنسان أسباب المرض دون أن يعتل به ، أو يتألم منه . . ما سر ذلك ؟

من الذى أفقد الجراثيم قدرتها على الإصابة ابتداء وانتهاء ؟ نحن المؤمنون نقول : الله .
ونسأل الشاكين : من غيره ؟ إن عالم الحس بالنسبة إلى عالم الغيب ضئيل محدود ، والتحكم
فى أسباب المرض والعافية أقله فى أيدينا ، وأكثره بعيد عن متناولنا . .

والتداوى حق . وقد وصفت السنة عقاقير وأغذية وأشربة شتى للنجاة من الأمراض ،
ونكن يبقى قبل ذلك كله ، وبعد ذلك كله ، هذا السبب الخفى الذى يجعل الجراثيم
تستأنس حيناً ، وتفترس حيناً آخر ، الذى يجعل العدوى تنتقل من الهباء ، ولا تنتقل مع
طول المخالطة والاتصاق . . !!

من أجل ذلك يبقى دعاء الرب الأعلى ، واهب الأسباب قدرتها على العمل إذ شاء ،
وتاركها صفرًا لا أثر لها إذا شاء . . !!

وعلى ضوء هذا البيان نفهم المرويات التى نثبتها هنا واثقين من صدق نتائجها .

عن عثمان بن أبى العاص أنه شكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعا يجده فى
جسده فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ضع يدك على الذى تألم من جسديك .
وقل : باسم الله - ثلاثاً - وقل سبع مرات - أعوذ بعزة الله ، وقدرته من شر ما أجد ،
وأحاذر » .

وعن أنس رضى الله عنه أنه قال لثابت رحمه الله : ألا أرقبك برقية رسول الله صلى الله
عليه وسلم ؟ قال : بلى . قال : « اللهم رب الناس ، مذهب البأس أشف أنت الشافى ، لا
شافى إلا أنت ، شفاء لا يغادر سقماً » !!

وهذه قصة طريفة رواها البخارى ونحب أن نثبتها وتندبرها . فعن أبى سعيد الخدرى

رضى الله عنه، قال: انطلق نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حى من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحى. فسعوا له بكل شىء لا ينفعه شىء . . .

فقال بعضهم: لو أتيتهم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عندهم بعض شىء . فأتوهم، فقالوا: يأبى الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شىء لا ينفعه شىء . . . فهل عند أحد منكم شىء؟

قال بعضهم: إني والله لأرقى، ولكن والله لقد استضافناكم فلم تضيفونا فما أنا براق نكم حتى تجعنوا لنا جعلا. فصاحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ: «الحمد لله رب العالمين . . .» - يعنى ينفث بها عن اللديغ - فكانها نشط من عقال. فانطلق يمشى وما به قلبة^(١)، فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه.

وقال بعضهم: اقسموا، فقال الذى رقى: لا تفعلوا حتى نأتى النبى صلى الله عليه وسلم. فنذكر له الذى كان . . . فننظر الذى يأمرنا . . . فقدموا على النبى، صلى الله عليه وسلم، فذكروا له فقال للصحابى الذى رقى المريض بأم الكتاب: «وما يدريك أنها رقية؟» ثم قال: «قد أصبتم، اقسموا، واضربوا لى معكم سهما». وضحك النبى لما كان.

وفى رواية مشابهة قال النبى للراقى: «كل فلعمرى لمن أكل برقية باطل لقد أكلت برقية حق».

لقد استوقفتنى هذه القصة من وجوه عديدة . . . فإن فاتحة الكتاب سورة عظيمة القدر بما حوت من تمجيد لله ودعاء، وكان ظنى أنها تنفع قارئها وحده. أما أن تنفع المقروء له فذاك ما أثبتته القصة هنا . . .

والقصة تحكى أن هؤلاء نفر من صحابة الرسول نزلوا بقوم لئام، رفضوا أن يقبلوهم ضيوفاً، وهذه خسة منكورة . . . ترى هل فعلوا ذلك بخلا أم فعلوا ذلك كرها للإسلام، والذين دخلوا فيه؟ إننى أرجح السبب الأخير . . .

وكان من قدر الله أن أفعى أو عقرباً لدغت كبير القوم وتركته لا قرار له ولا يجدى معه شىء . مما اضطر أهله أن يلجئوا للصحابة طالبيين نجدة . . . !!

(١) القلبة بفتح القاف واللام: الألم والعلّة.

والغريب أن الذى دأوى المريض بالفتاحة ينفث بها على المصاب هو الذى توقف فى الانفاج من المكافأة التى اشترطها . وشك فى جواز الأكل منها . . وهو تصرف يدل على أن الراقى كان يجمع بين صدق الإيمان وشدة الورع . .

وهنا موطن العبرة . . فليس كل قارى يشفى ، ولا قراءة تداوى ، ولكن لله عبادة إذا أرادوا ، وإذا استنزلوا الفضل نزل . .

وقد فرح الرسول صلى الله عليه وسلم بالقصة كلها ، وأحب إرضاء الراقى ، فشاركهم فى الطعام من المكافأة المبذولة . . !!

ولم لا يفرح بأثر الوحي النازل عليه إذا صحبه اليقين الحار والعمل البار؟ إن الجانب الغيبى فى هذه المرويات ما يمكن إنكاره ، وكذلك ما يمكن تعميمه بين أهل السبق وانتقاصه . أو بين من هم بالله علاقة وثيقة ، ومن يمتون إليه بأوهى الصلات . .

وأغلب الصالحين يستمد صحته الجسدية ، ومقاومته للأدواء والأوجاع من هذا النبع الجياش فى فؤاده يمدده بعفو الله ، وعافيته . .

ونعود إلى إمام الصالحين محمد بن عبد الله لننقل عنه أنه كان يغالب المتاعب العارضة باللجوء إلى الله والاستعاذة به . . قد تقول : إننا عرفنا عنه سلامة البدن وقوته ، وأنه أوتى من ذلك ما لم يؤت غيره ، فمن أين تجيئه هذه الأسقام ، الملجئة إلى التعوذ . والضراعة؟

ونقول : لا ريب أن خاتم المرسلين أوتى بسطة فى العلم والجسم تعينه على أضخم رسالة حملها بشر . . نكن سهر الليل فى التهجد والتلاوة وسبح النهار فى العبادة والكدح . والجهاد المتصل . وحمل آلام الخلق ، واطراد هذه المعاناة ربع قرن ، وهى تربو . ولا تخف . . مع تخفف مستغرب من الطعام والشراب ، هذا كله أعياء الجسد الجلد ، وأرهقه .

لقد رمقت عددًا من كبار القادة فوجدتهم يتناولون مقادير كبيرة من المنبهات والمقويات . ويستهلكون مقادير أخرى من المأكول والمشرب ، على حين رأيت فى سيرة محمد أنه يحتاج إلى الطعام ، فيؤتى له بخل - إذ لا يوجد غيره - فيغمس فيه اللقيات المتاحة . وهو راض يقول : «نعم الإدام الخل . .» أو لعله لا يجد شيئًا فينوى الصيام إلى الغروب .

أى جسد يتحمل مع هذا الإقلال أعباء الغزوات التى قصمت الوثنية ، وأعباء التربية التى أطلعت من الجزيرة القاحلة رجالاً أضاءوا العالمين . .

إن الإمدادات الروحية الهابطة من السماء هي من وراء هذه الأعصاب - الحديدية . .
ذكره لله ، ودعاؤه لله ، وتفويضه لله . .

جاء في الصحيح أنه كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث ، قيل للزهرى -
أخذ رواية الحديث - كيف ينفث ؟ قال ينفث على يديه ، ثم يمسح بهما وجهه .

لقد ظل كذلك طوال عمره ، ففي رواية أخرى أن النبي كان ينفث على نفسه في المرض
الذى توفي فيه بالمعوذات . . قالت عائشة : فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن ، وأمسح بيد
نفسه لبركتها . . « تعنى - رضى الله عنها - أنها تمسح جسده بيده هو التماس بركتها !

ذاك طبيبه الخاص في دنيا الناس . . !! إذا كان للرؤساء أطباء خاصون بهم . . !!

وكذلك كان يغالب الأسقام ، حتى استراح مع الرفيق الأعلى . .

إن تعبيرنا هنا بالجانب الغيبي قد يصح بالنسبة إلى جمهرة الناس . فإن ظلال الأشياء لا
تغادر بصائرنا ، ورغائبنا الخاصة قلما تنفك عنا . مع ما يخالط ذلك كله من يقين
وإخلاص . . لكن الأمر بالنسبة إلى الأنبياء غير ما نتصور ، فهم في شهود غالب يجعل
إحساسهم برب الأشياء أسبق من حسهم بالأشياء نفسها .

ونبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام كانت روحانيته عارمة ، والإشراق الإلهي على قلبه لا
يلحقه أفول . . وكان جهده أن يرفع مستوى من حوله ، وأن يغلب ماديتهم بصفائه ،
وسنانه . .

وذلك يجعلنا نلقى نظرة عجيلى على أركان الإسلام لنرى كيف كانت معارج ارتقاء ،
ومصادر تذكر دائم لله ، ولنرى كيف انفرد هو بأدائها على نحو لا يدانى ولا يرام . . . !!!

الأركان العامة

كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل الصلاة قال : «الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً . وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئاً مسلماً وما أنا من المشركين . إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» .

«اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك . ظلمت نفسي . واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً لا يغفر الذنوب إلا أنت . واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت» .

«ليبت وسعديك ، واخير كله في يديك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك . تباركت وتعاليت ، استغفرك وأتوب إليك . . .!!» .

ومعنى : الشر ليس إليك ، أنه لا يبدأ به عبداً ، وإنما يجلبه العباد على أنفسهم بسوء عملهم : ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾^(١) .

وربما قال عليه الصلاة والسلام في مفتتح صلاته : «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب . اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس . اللهم اغسلني بالماء والثلج والبرد!!» .

وربما قال : «سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك . . .!!»

وربما قال في ركوعه إذا ركع : «اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت . خشع لك سمعي ، وبصري ، ونفسي ، وعظمي ، وعصبي» .

(١) سورة الشورى : ٣٠ .

وربما قال بعد الرفع من الركوع : «ربنا لك الحمد ، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد . . . أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد . وكلنا لك عبد . لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد» أى لا ينفع أحدا ما قسمت له من دنيا عريضة . إنها ينفعه ما يلقالك به من تقوى وأدب . . !!

وربما قال فى سجوده : «سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء . والعظمة» أو قال : «اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافتك من عقوبتك وأعوذ بك منك . سبحانك ! لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» . !!

إننى عندما أتلو هذه العبارات المضيئة أشعر كأن الأنبياء كلهم ، والملا الأعلى معهم . يقفون وراء محمد صفوفاً صفوفاً ، وهو يدعو بها أفاض الله على قلبه ولسانه ، وهم يؤمنون ، ويؤكدون . . !!

وقد أسأل : هل هناك عنصر من عناصر العبودية ، أو معلم من معالم الرغبة والرهبة فات محمداً ، وهو يناجى ربه ؟

هل أدى أحد من الملائكة المقربين ، أو الرسل المكرمين تحية لرب العالمين أزكى من هذه التحية ، أو مدحاً أسنى من هذا المدح ، أو اعتذاراً على تقصير أرق من هذا الاعتذار . .

والتقصير هنا يرجع إلى واحد من أمرين : أن طاقة البشر محدودة والواجب كبير ، أو أن عظمة الرب فوق ما يعى الواعون فالألفاظ تنفى ، وحق الله أكبر مما يقولون . . !!

على أنه فى ميدان التعبد لله ، يحسن المعرفة وإسداء الشكر ، نرى إنساناً فذاً ، سبق سبقاً عبداً ، تحبو البشرية وراءه . وهى مبهورة الأنفاس ، وفى مسامعها أصداً تسييح ، وتحسّد تتجدد ، ولا تنبدد .

من هذا العابد المستغرق الأواه المنيب ؟ إنه محمد بن عبد الله .

ونهبط من هذا الأفق لنسمع فحيح بعض الأفاكين يقول : ليس محمد نبيا ! ومن قبل ذلك استمعنا إلى سخفهم وهم يقولون : لله ولد ، وهو معه إله . . ويحكم !! إنه لا إله إلا الله ، وإن محمداً رسول الله . .

إن الصلاة هى الركن الثانى فى الإسلام ، ولا مجال هنا لشرح أقوالها وأفعالها ، وما سقناه من أدعية وأذكار نيس من قبيل الواجب ، فالصلاة تتم بقراءات وأذكار دون ذلك . وإننا أردنا أن نشير إلى فن الذكر عند كبير العابدين .

والصلاة هي العبادة الأولى في كل دين ، وقد كانت الشغل الشاغل للنبي عليه الصلاة والسلام . وقد جعلها شارة التقوى ، ومظهر الخضوع والتودد ، وشعار الولاء المطلق لله رب العالمين .

وتوجد معابد لشتى الأديان ، بيد أن الإسلام جعل العبادة ارتباطاً بآله واحد . واستمداداً من إله واحد ، واحتكاماً إلى إله واحد ، وعودة - في النهاية - إلى هذا الإله الواحد . !!

والنبي العربي محمد أفضل من عرف الخلق بهذا الإله الواحد ، وحببهم فيه . وأشعرهم بأن ربهم أرحم بهم من الوالد والوالدة ، وأعطف عليهم من كل صديق .

وقد بينا في مواضع أخرى أن منهاج الإسلام في التربية يجمع بين صفات الجلال وصفات الجمال ، وما يستغنى البشر عن هذا الجمع ، فهناك فراعنة تغريهم السلطة بالبغي . وهناك فقراء يعوزهم الدعم . أو مخطئون يلتمسون الهدى والمتاب .

في هؤلاء وأولئك تقرأ قوله تعالى : ﴿إِنْ بَطَشَ رَبُّكَ لِشَيْءٍ إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيَعِيدُ﴾ وهو الغفور الودود* ذو العرش المجيد*^(١) .

وما يحجب في الله ، وما يؤسس مشاعر الحب في الأئمة فيض غامر في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، لا نعرف له نظيراً في أي تراث .

إذا اعترضتك مشكلة ، ولم تدري كيف تتصرف بإزائها ، فالجأ إلى ربك تستفتيه ، وسله أن يوجهك إلى الأفضل ، إنه منك قريب فلماذا تتركه؟؟

عن جابر بن عبد الله كان رسول الله يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدر بك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب .

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي ، وعاقبة أمري - أو قال : عاجل أمري وآجله - فاقدري لي ، ويسره لي . ثم بارك لي فيه .

وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال : عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني واصرفني عنه . واقدر لي الخير حيث كان . ثم أرضني به .
ويسمى حاجته» .

(١) سورة البروج : ١٥-١٢ .

استغربت من بعض أعداء محمد، وهم يقولون متهمين: إن رب محمد جبار متكبر. .
قلت: ليكن! هل يكسر جبابرة الأرض إلا جبار السماء، وهل يمحو كبرياءهم إلا الكبير
المتعال؟؟

إن إنقاذ الدنيا من أولئك المدمرين رحمة مهداة. .

ومع ذلك فإن مؤدب الطغاة يقول للمتكسرين: أنا معكم جابر، ويقول للمستهدين:
أن لكم مرشد. ويقول لطلاب خيره: اسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليا.
إذا كانت لك حاجة فتعال بها إلى ربك، إنه لن يتعب في قضائها: ﴿إنما أمره إذا أراد
شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾^(١).

عن عبدالله بن أبي أوفى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كانت له
حاجة إلى الله تعالى، أو إلى أحد من بنى آدم فليتوضأ، وليحسن الوضوء، ثم ليصل
ركعتين، ثم ليثن على الله عز وجل، وليصل على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ليقل:
لا إله إلا الله الخليم الكريم. سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين.
أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك والعصمة من كل ذنب، والغنيمة من كل بر،
والسلامة من كل إثم، لا تدع لي ذنباً إلا غفرته، ولا هما إلا فرجته، ولا حاجة هي لك رضا
إلا قضيتها يا أرحم الراحمين».

وتنقضي الدنيا بأفراحها وأحزانها، وتنتهي الأعمار على طولها وقصرها، ويعود الناس إلى
ربهم بعد ما أمضوا فترة الامتحان على ظهر الأرض ﴿كما بدأكم تعودون﴾* فريقياً هدى
وفريقياً حق عليهم الضلالة﴾^(٢).

أصبحت الدنيا ذكريات. . . وها هم أولاء بنو آدم يضعون أقدامهم على عتبات
الآخرة. .

ويموت مسلم في المدينة المنورة، ويقف النبي الكريم مصلياً على جنازته، ويقدمه إلى
ربه قائلاً: «اللهم اغفر له وارحمه، وعافه، واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله،
واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله
داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وزوجاً خيراً من زوجته، وأدخله الجنة وأعذه من
عذاب القبر، ومن عذاب النار».

(١) سورة يس: ٨٢.

(٢) سورة الأعراف: ٢٩، ٣٠.

قال راوى الحديث : لقد تمنيت أن أكون ذلك الميت الذى ظفر بهذه الدعوات المباركات . .

واختار الشافعى من أدعية الرسول الكريم هذا الدعاء : «اللهم هذا عبدك ، وابن عبدك خرج من روح الدنيا وسعتها ومحبوبيتها وأحبابه فيها إلى ظلمة القبر، وما هو لاقية» .

«كان يشهد أن لا إله إلا أنت . وأن محمداً عبدك ورسولك وأنت أعلم به»

«اللهم إنه نزل بك وأنت خير منزل به . وأصبح فقيراً إلى رحمتك وأنت غنى عن عذابه . وقد جئتك راغبين إليك ، شفعاء له» .

«اللهم إن كان محسناً فزد في إحسانه ، وإن كان مسيئاً فتجاوز عنه . . وآت به برحمتك رضاك ، وقه فتنة القبر وعذابه ، وأفسح له في قبره ، وجاف الأرض عن جنبيه ، ولقه برحمتك الآمن من عذابك ، حتى تبعثه إلى جنتك يا أرحم الراحمين» .

الصلاة على المؤمنين كتاب موقوت ، ترتبط بحركة الشمس الظاهرة ، قبل الشروق بنحو ساعة ونصف ثم بعدما تتوسط كبد السماء ، ثم بعد ما تميل وتتضاعف الظلال ، ثم بعدما تغرب ، ثم بعد ما يختفى الشفق الأحمر . .

وكما يرعى المسلمون الشمس لضبط عبادتهم اليومية يرعون القمر لضبط فريضتى الصيام والحج . . إن الزمن في حياتهم مطية إلى الآخرة ، وقد لفت النبى صلى الله عليه وسلم أنظارهم إلى الشمس في سمائها الصاحية ، وإلى القمر وهو بدر تم . وأشعرهم أنهم سوف يرون ربهم فى الدار الآخرة بهذا الوضوح .

أفما ينبغي الاستعداد لهذا اللقاء بأعمال تنضر الوجوه . وتحمل العقبى ؟

إن أهم الأعمال أن يذكر هذا الرب فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، وألا تكون مخلوقاته حجاباً دونه . أو عقبات أمام ما يجب له . .

وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم ربانى الشعور والسلوك . يستغل كل شىء لتحية الله . وإعلان حبه ، وتقدير وحدانيته . عن ابن عمر كان رسول الله إذا رأى الهلال قال : «الله أكبر ، اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ، والتوفيق لما تحب وترضى ، ربنا وربك الله» .

وفى رواية أن نبى الله كان إذا رأى الهلال قال : «هلال خير ورشد ، هلال خير ورشد ،

هلال خير ورشد . آمنت بالله الذى خلقك - ثلاثاً - ثم يقول : الحمد لله الذى ذهب بشهر كذا ، وجاء بشهر كذا .

هذا قلب عابد يرصد الزمن الدوار ، ليحمد مقلب الليل والنهار ، ويتفائل بنعمة قادمة ، ويشيع نعمة ذاهبة ، إن الزمن عنده هبة مبدولة فى طاعة الله ، وهو ما يضيع من هذا الزمن السائر لحظة فى هو أو غفلة ، إنه فى صلاة ، وصيام ، وجهد ، وسعى دعوى لقيادة الخلق إلى الله .

والناس إذا ذكر الصيام يذكرون رمضان ، لأنه شهر الفريضة ، ولكن النبى عليه الصلاة والسلام كان يصوم حتى يقال : ما يفطر . وقلنا : إنه كان فى رمضان يواصل الصيام أحيانا فما يفطر عند الغروب ، وهذا من خصائصه التى تفرد بها .

وكلماته عندما يفطر تدل على نوع المعاناة التى كان يحسها فى صيف يجنف لحيه الخلق ، ويرهق الأبدان . . فعن ابن عمر كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أفطر قال : «ذهب الضمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله» وقد يقول : «اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت» .

وعن عبدالله بن عمرو قال : سمعت رسول الله يقول : «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد» قال ابن مليكة : سمعت عبدالله بن عمرو - راوى هذا الحديث - إذا أفطر يقول : «اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفر لى» .

سمعت متحدثاً كأنه يعتذر عن مناسك الحج ، يقول : إن الله يختبرنا بها نعقل حكمته ، وبها لا نعقل حكمته . لتظهر طاعتنا ، فى هذا وذاك !!

قلت : تعنى أن المناسك التى كلفنا بها فى الركن الخامس غير معقولة؟ فسكت تهيئا .
تم قال : ذاك ما أريد ، وأنا أطيع الله جل وعز فى كل ما يكلفنى به . .

قلت : إن هناك أمورا كثيرة لا صلة لها بقضايا العقل . لا سلبا ولا إيجابا ووصفها بأنها «لا معقولة» غير صحيح! فنحن نكتب لغتنا العربية من اليمين إلى اليسار ، وأسرة الدول الغربية تكتب لغاتها من اليسار إلى اليمين ، هذه أوضاع لا توصف بأنها مع العقل أو ضده . هذه شئون تواضع الناس عليها ، ومن حقهم ذلك دون ملام على ما ساروا فيه ، واختاروه لأنفسهم . . !!

عند استعراض الجيوش يكلف الجند بأداء التحية على نحو معين ، فيرفعون السلاح

بحركة خاطفة، ثم يصوبونه إلى إحدى الجهات، ثم يردونه إلى أخرى. ثم يستقر على سناكبهم. ثم يتجهون صوب منصة القائد برءوسهم... إلخ - ما هذا؟ أمور تواضع الناس عليها... يمكن أن نرفض منها ما ينبو عن الذوق اللصيف. ويمكن أن نستملح ما يوانم ضبا عند...!! ولا صلة هذا كله بقضايا المنطق العقلي..

إن الإسلام يرفض ما يخالف العقل والفطرة، ولكنه لا يعترض المسالك البعيدة عن هذا المجال إلا إذا خدمت باطلا!!

قال: تقصد أن أفعال الحج من هذا القليل السائع؟ قلت: نعم.

قال: ماذا يكون الضواف سبعة أشواط مثلاً؟ قلت: السؤال الدورى يسقط تلقائياً، لأنه لو كان أقل أو أكثر لتكرر السؤال. ماذا كان مسك فلان، ولم يكن فلان، إنه سؤال دائر لا ننتزم له بإجابة، ومع ذلك فإن أفعال الحج في جملتها معقولة، ولها حكم بيعة..

من حق الإنسانية أن تعتر بذكرياتها القديمة. وأن تحيط هذه الذكريات بأسوار من المهابة والتقديس إذا كانت تتصل بعقائدها وقيمها... ومنسك الحج جزء من تاريخ جليل، ومفتاح خزان من الروحانية الدافقة والعاطفة الجياشة، ومن ثم كان الارتباط بها ركناً في الدين. «ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب»^(١).

ويحتاج هذا الكلام إلى شرح معقول! لماذا تنطلق قوافل أبر والبحر وأجر صوب البيت العتيق، مقبلة من القارات الخمس، وفي الأفندة شوق وفي العيون بريق؟ الحق أن البيت المقصود جدير بهذا الإعزاز كله. فقد بناه أبو الأنبياء إبراهيم ليكون حصناً للتوحيد وملقى للركع السجود بعدما اشتبك عليه السلام مع الوثنية الأولى في صراع حياة أو موت. وقد انتصر إبراهيم في معركة الوحدانية، ورفع هو وابنه إسماعيل قواعد هذا البيت توكيداً لنصر. ومراغمة للكفر: «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدي للعالمين* فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين»^(٢).

إن المسجد الأول في العالم جدير بأن تشد إليه الرحال، وأن تجيء إليه الوفود بين الحين والحين لتؤدي له التحية... وكل مسجد يبنى في المشارق والمغارب بعده ينبغى أن يرتبط

(١) سورة الحج : ٣٢.

(٢) سورة آل عمران : ٩٦ - ٩٧.

به وأن يتجه إليه ، ولذلك كان هذا المسجد المحترم قبلة للمؤمنين كافة : ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره . . .﴾^(١) .

وشىء آخر فى تاريخ الإنسانية يشدنا نحن المسلمين خاصة إلى هذه الكعبة المشرفة ، أن أمتنا الكبيرة كانت أملاً عندما بدأ هذا البناء ، وأن رسالتنا الخاتمة كانت دعوة حارة عندما برزت هذه القواعد ، كان إبراهيم وإسماعيل يقولان : ﴿ . . . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . . .﴾^(٢) .

إننا نحن الذرية المسلمة المعنية فى هذا الدعاء ، وإن رسولنا الخاتم محمدًا عليه الصلاة والسلام هو والدنا الروحى والثقافى وصاحب أطهر أنفاس حنت على العالم . وألمته رشده . . أفلا نرتبط بعدئذ بهذا البيت ، ونزوره ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً؟ ما أعظم الذكريات التى تحف به ! وما أوفى الوفود التى طوت الأبعاد لرؤيته ، والتزود من خيرهِ ، وبرهِ . . !!

ونحن نحى البيت العتيق بالضواف حولهِ والصلاة إليه . نجعل الحجر الأسود إلى يسارنا ثم نلف سبع مرات ، أو سبعة أشواط . وماذا نقول خلال ذلك؟ نقول : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر وندعو بما نشاء من حوائج الدنيا والآخرة : ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم . . .﴾^(٣) . والبشر فقراء إلى الله ، وهو صاحب الخزائن التى لا تنفد . .

كلهم سائل وأنت مجيب تلك نعالك ما لها من نفاد!

وبعض الحمقى من المبشرين يظن للمسلمين علاقات مادية بالكعبة وبالحجر الأسود خاصة . وهذا ظن ما يبوء إلا بالسخرية والضحك ، فإن التوحيد الذى يعمر قلوب المسلمين طراز من اليقين الحر لا نظير له فى الدنيا ، والهتاف الذى يسود مواكب الحجيج منذ تحركها النبيل هو : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك . . .» . وهو هتاف يزداد هديره كلما علوا ربوة ، أو هبطوا وادياً ، أو لاقوا جمعاً . وكلما أظلمتهدأ الليل ، أو سكينه السحر . . ويشعر الملبى أن الكون كله يتجاوب معه مصداق ما ورد فى الحديث : «إذا لبي الحاج لبي ما عن يمينه ويساره من

(١) سورة البقرة : ١٥٠ .

(٢) سورة البقرة : ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣) سورة البقرة : ١٩٨ .

شجر، وحجر، ومدر حتى منقطع الأرض من ها هنا، وها هنا» . . ولا عجب أن يتجانس الكون المسبح بحمد الله مع إنسان انخلع عن نفسه، وانطلق في سفر صالح يبغي مرضاة الله . وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يريد سفرًا إلا قال حين ينهض من جلوسه : «اللهم زدني التقوى واغفر لى ذنبى ، ووجهنى للخير أينما توجهت . اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل والمال والولد» .

إن الحاج إنسان متبتل إلى الله ، متلهف على رضاه ، متطلع إلى مثوبته متخوف من عقوبته ، يتحرك كل شىء فى بدنه بمشاعر الشوق والرغبة والحب ولا أعرف تجمعاً أهلاً لرحمة الله ومغفرته كهذا التجمع الكريم .

والسعى بين الصفا والمروة يقع عادة بعد الطواف ، وشعائر السعى تجديد وتخليد لمشاعر التوكل على الله كما استقرت فى قلب «هاجر» أم إسماعيل . وكما استقرت فى قلب رجلها إبراهيم الخليل .

إن التوكل شعور نفيس غريب ، وهو أغلى من أن يخامر أى قلب ، إنه ما يستطيعه إلا امرؤ وثيق العلاقة بالله حساس بالاستناد إليه والاستمداد منه . وعندما ينقطع عون البشر، وتتناشى الأسباب المرجوة وتغزو الوحشة أقطار النفس فهلا يردّها إلا هذا الأمل الباقي فى جنب الله . عندئذ ينهض التوكل برد الوسائس وتسكين المواجهس . إننى بعين الخيال أتبع هاجر وهى ترمق وليدها الظامئ ، ثم تجرى بخطوات واهة هنا وهناك ترقب الغوث وتنتظر النجدة . . إن ظنّها بالله حسن . وقد قالت لإبراهيم عندما تركها فى هذا الوادى المجذب الصامت : آله أمرك بهذا؟ قال : نعم . . ! قالت فى رسوخ : إذن لا يضيعنا . . !! وهى ذى تتعرض للمحنة ، وتنتظر تدخل السماء . . وتدخلت السماء ، وتفجرت زمزم ، وغنى الوادى بعد وحشة وصار الرضيع المخرج أمة كبيرة العدد عظيمة الغناء . ومن نسله صاحب الرسالة العظمى ، ومن شعائر الله هذا التحرك بين الصفا والمروة تقليدًا لأم إسماعيل ، وهى ترمق الغيب بأمل لا يخيب . .

ما أحوج أصحاب المثل إلى عاطفة التوكل ، إنها وحدها تكثرهم من قلة ، وتعزهم من ذلة ، وتجعل من تعلّقهم بالله حقيقة محترمة . ولعل ذلك بعض ما تعنيه الآية : ﴿إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاکر عليم﴾^(١) .

(١) سورة البقرة : ١٥٨ .

قال المؤرخون : إن إبراهيم لما ترك هاجر وابنه يواجهان المصير المجهول في هذه البقعة المنقضة عرض له الشيطان وهو ينقل قدميه في منى - بعدما أنفذ أمر الله - يقول له : أترك أحد أسرته تموت جوعاً وعطشاً على هذا النحو؟ عد فاستنقذ أهلك!! ولكن إبراهيم حذف لشيطان بالحجارة ومضى في طريقه يناجي ربه : «ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون»^(١).

واستجاب الله للدعاء الخالص . وسقط كيد الشيطان فلم ينل شيئاً من قلب الإنسان المؤمن الوثاق . وكانت سنة رمى الجمرات ليعلم من يجهل أن وعد الله حق . وأن وسوسة الشيطان هراء . ومف تعمل هذه الوسوسة عملها إلا مع أصحاب القلوب الفارغة : فإنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون* إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون^(٢).

ومما يلفت النظر أن القرآن الكريم لما أراد أن يذكر رمى الجمرات بسنى لم يستعمل هذا العنوان المألوف ، بل عبر عنه بذكر الله في أيام معدودات قال تعالى : «واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه من اتقى^(٣) . . . كان المقصود من هذا الموضوع هو الذكر الجهرى العالى لرب العالمين . وما رمى الجمرات إلا رمز . . .

والحق أن الحج كله هو هذا الهدى الموصول بذكر الله من أمواج بشرية متصلة . لا شغل لها إلا الجوار بالتلبية والتهافت بالتسبيح . ومن المؤسف أن رمى الجمرات تحول إلى عمل معنت تزهد في زحامه أرواح ولا يستطيعه إلا أصحاب الجلادة والمغامرة! ماذا؟ لأن الرأى الفقهي السائد أن الرمى لا يصح إلا بين زوال الشمس وغروبها . . فكانت الجماهير المتدفقة في ذلك الوقت العصبى تواجه المهالك . وقد رفضت شخصياً هذا الرأى لأننى لم أعرف له سناداً من كتب أو سنة . ورميت في أوقات خفيفة الحر والزحام!!

ومما يسر الآن أن الحكومة السعودية جعلت للرمى ميداناً أعلى وآخر تحته وضبطت طريقى الذهاب والعودة ، وفسحت المجال للقول بأن الرمى يصح خلال الأيام المعهودة

(٢) سورة النحل : ٩٩ - ١٠٠ .

(١) سورة إبراهيم : ٣٧ .

(٣) سورة البقرة : ٢٠٣ .

نبلا ونهارا . . فاستنقذت بذلك أرواحا وأعانت على طاعة . . إن هناك مسلمين يظنون الحج جملة مشكلات معقدة، وهؤلاء عسروا اليسير واختلقوا بدعا لا أصل لها . . حتى ظن البعض أن لكل شوط في الطواف دعاء خاصا، وأن لكل شوط في المسعى دعاء خاصا . وألفت كتب لهذه الأدعية ما أنزل الله بها من سلطان .

وهناك أشخاص معلولو الفكر يظنون السعى على الأرض أولى من السعى في الدور الأعلى الذي أقامته الحكومة تخفيفا لأهوال الزحام، وكذلك في رمي الجمرات يظنون أن الرمي على الأرض أهم من الرمي في الدور الأعلى!! وما يدري هؤلاء أن النبي صلى الله عليه وسلم ضاف حون البيت فوق ناقته يشير إلى الحجر الأسود بعصه من بعيد . . إن الحج عبادة رقيقة محبوبة أساسها الوقوف بعرفة والطواف حول البيت وبعض شعائر أخرى يمكن استيعابها بيسر دون قلق أو حرج . . والدين كله يقوم على صدق الإخلاص ونضج الأخلاق وحسن العلاقة بالله وبعباده، والقرآن الكريم يقول في الحج : ﴿ الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾^(١) . وهذه الرحلة بين الأماكن المقدسة تصقل الطبع وتنزكي القلب . وتنمي مشاعر الحب لله ولرسوله وجماعة المسلمين . فلا عجب إذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثر هذه الفريضة الجلييلة : « من حج هذا البيت فلم يرفث . ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

ولقد ثبت أن مكة مركز العمران في هذا العالم واستطاع الدكتور « حسين كمال الدين » أستاذ الهندسة بجامعة الرياض أن يثبت بحسابات رياضية عالية أن مكة تتوسط القارات المأهولة، وأن وضعها الذي قرره العلم الحديث تفسير حقيقى لقوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه . . ﴾^(٢) .

فحول الكعبة المشرفة دوائر متتابعة الرحابة من الركع السجود، يتلوها غيرها من المسلمين الذين اتخذوا المسجد الحرام قبلتهم، وعلى امتداد خطوط الطول والعرض تسمع كلمات الأذان وتنحنى الأصلاب والجباة ركوعا وسجودا لأهل الحمد والمجد، رب المشارق والمغارب، رب العالمين .

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

(٢) سورة الشورى : ٧ .

فى موسم الحج تلتقى مكة بالوفود المقبلة من كل فج عميق ، تلتقى بأفراد الإنسانية الموحدة المهتدية المحبة لله وللمسجد الأول أبى المساجد فى القارات كلها تتصافح الوجوه وتتعارف النفوس على تلبية النداء الصادر بحج البيت ، النداء الذى صدر من قديم ، وزاده الإسلام قوة وحدة .

﴿وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات . . ﴿(١)﴾ .

ووفود الله القادمة إلى مكة تصنع مجتمعاً شغله الشاغل ذكر الله ، والاحتاف باسمه المبارك .

فى الأحياء التجارية يكون تبادل السلع والأثمان هو الحركة السائدة . . فى الدواوين الحكومية يكون تنقل الأوراق من هنا وهناك مظهر الحياة البارز . .

لكن الحجاج والعمار يقيمون سوقاً للصالحات لها جوار هائل بالتلبية والتكبير كأن الأرض تحولت بهم إلى أفق يعج بالملائكة المتعبدين .

قال النووى يرسم عمل الخجيج : «ويستحب الإكثار من التلبية يستحب ذلك فى كل حال ، قائماً وقاعداً . ماشياً وراكباً ، مضجعاً ونازلاً وسائراً ، محدثاً وجنباً وحائضاً . وعند تجدد الأحوال وتغايرها زماناً ومكاناً ، كإقبال الليل والنهار ، وعند الأسحار . واجتماع الرفاق . وعند القيام والقعود والصعود والهبوط والركوب والنزول ، وفى أدبار الصلوات ، وفى جميع المساجد» .

ثم قال النووى : «وإذا رأى شيئاً أعجبه قال : لبيك ، إن العيش عيش الآخرة . . اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم» .

ولبواعث هذا الإعجاب قصة ، فقد روى الشافعى عن مجاهد قال : كان النبى عليه الصلاة والسلام يظهر التلبية : لبيك اللهم لبيك . . إلى آخرها حتى إذا كان ذات يوم والناس يدفعون عنه ، فكأنه أعجبه ما هو فيه فقال : «لبيك إن العيش عيش الآخرة» !!

قال ابن جريج : حسبت أن ذلك يوم عرفة !!

(١) سورة الحج : ٢٧ - ٢٨ .

من حق عشرات الألوف من الحجاج أن يزدحموا حول نبيهم ، وهو يجأر بذكر الله ، إنه صانع هذه السيرة وقائدها .

لكن محمدا الضخم لا يزدهيه أن تزدحم حوله الأتباع ، إن فؤاده المعلق بالله ، المرتقب للقاءه ، جعله يذكر الآخرة . ويؤمل في غدها القريب . .

ولقد سمع . وهو على الصفا يقول : «الله أكبر الله أكبر . الله أكبر ولله الحمد . الله أكبر على ما هدانا . والحمد لله على ما أولانا» .

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد . يحيى ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير» .

«لا إله إلا الله ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده» .

«لا إله إلا الله . ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون» .

اللهم إنك قلت : ﴿ادعوني أستجب لكم﴾^(١) . وإنك لا تخلف الميعاد وإنى أسألك كما هديتني للإسلام ألا تنزعه منى حتى تتوفانى وأنا مسلم . . !!

سبحان الله ، أمل الرسل الكرام من قبل . . إن يوسف الصديق - بعدما أوتى الملك - دعا الله أن يميته على الحق : ﴿ . . . فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وأحقنى بالصالحين﴾^(٢) .

كذلك يدعو محمد ربه . وهو في حجة الوداع ، بعدما نكس الأوثان . ومحا الجاهلية وأقام دولة التوحيد ! والجميل أنه بعد خمس سنين من غزو الأحزاب للمدينة يذكر النصر الذى منحه القدر ، والذى جاء نجدة مشرقة بعد كفاح معنت رهيب .

إنه الله أنجز وعده وهزم الأحزاب وحده . وما كان غيره يفل حدهم ويمزق شملهم ويبطل كيدهم . . إنه الله أهل الحمد والثناء . وأهل التقوى وأهل المغفرة . . !!

هل استراح الإيمان وحملته بعد هذه المعارك المظفرة ؟ كلا . . إن القوى الكافرة ستظل تبغض الحق ورجاله ، وتقلب هم الأمور ، بيد أن رجالات الإسلام سيمضون في الطريق إلى نهايته ولو كره الكافرون . .

(١) سورة غافر : ٦٠ .

(٢) سورة يوسف : ١٠١ .

تتبع كلمات النبي صلى الله عليه وسلم في مناسك الحج . طائفاً ساطع ادعية
مستفيضة ففوجئت بوجازة الكلمات التي قالها !!

لكن المسلمين أحدثوا لكل شوط في الطواف أو السعى ورداً يتلى ! وأحدثوا ليوم عرفة
أدعية مسهبة . والعاطفة وراء هذا الإلحاح مقدورة ، والمقبل على الله لا يستغرب منه أن
يستعين بكل كلمة تترجم عن شوقه وأمله . وأن يتشبث بكل حرف يضنه مفتاحاً خزان
الرحمة العليا . .

إن أي مسلم ينشد لنفسه وأهله الرضا والقرار ، فهو يقول مع موسى الكليم : «رب إنني
لما أنزلت إليّ من خير فقير» . (١)

والدعاء الذي لم يسأم النبي تكراره في الطواف والسعى : «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي
الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» (٢) .

والنشيد الذي يتردد بين فم اجبال وبطن الأودية هو : «لا إله إلا الله وحده لا شريك
له . له الملك . وله الحمد . وهو على كل شيء قدير» . . الألوף المؤلفة تصرخ به . وتتلاقى
عليه . .

(٢) سورة البقرة ٢٠١ .

(١) سورة القصص : ٢٤ .

ذكر وتذكير

في وهج الحر قد يأوى المرء إلى حجرة «مكيفة» الهواء، يبقى داخلها مراح الأعصاب!
وربما كان حظه أتم فذهب إلى مصيف عليل الريح لطيف الأنفاس، فهو - حيثما اتجه - في
ربيع دائم!!

إن علاقة المؤمنين مع ربهم، نور السموات والأرض، تتراوح بين هذه المنازل، فقد يعيش
العابد في صومعة معزولة عن ضجيج المجتمعات وآثامها، راكناً إلى الحميد المجيد الفعال
لما يريد، فهو سعيد بربه ترنو إليه بصيرته، وتتحدد عنده وجهته. ويظل كذلك بعيداً عن
لفح الحياة الضالة. والعوج الشائع . . .

وربما رزق بيئة صالحة. انهزم فيها الشيطان. واستقر في جنباتها الحق. وتجاوبت في
أرجائها أصداء التسبيح والتحميد، فهو يمشى على نور من يقينه، وأنوار من إخوانه
المتعاونين معه على البر والتقوى . . .

كان الصحابة رضوان الله عليهم يستمتعون في جوار النبي صلى الله عليه وسلم بربيع
دائم من الأنس بالله، والعتاف باسمه .

وكان النبي الجليل - كما وصفه ربه - سراجاً منيراً يرمى بأشعته في كل أفق. ويجمع
الناس على وحدانية جياشة المشاعر والمسالك. تتصدر كوناً كبيراً. كل شيء فيه يسبح
بحمد ربه!!

شعرت بأبعاد العبودية التي قامت عليها سيرة النبي الخاتم في مناح كثيرة من حياته صلى
الله عليه وسلم. ولكنني تريثت طويلاً عند طرفة عميقة الدلالة، رواها ابن عباس قال:
«جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: رأيتني الليلة وأنا نائم كأنني أصلي خلف
شجرة، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي! فسمعتها تقول: اللهم اكتب لي بها أجراً».

وحط عنى بها وزراً، واجعلها لى عندك ذخراً، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود عليه الصلاة والسلام!!» .

قال ابن عباس : سمعت رسول الله قرأ سجدة ، ثم سجد ، فقال مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة!!

هذه الطرفة ، كما قلت ، عميقة الدلالة فهى تدل على أن صاحب الرؤيا أحسن الاستفادة من تعاليم الإسلام حتى نضح ذلك على سريرته . وهو نائم .

وهى تدل كذلك على أن فؤاد الرسول المربى موار بعاطفة من حب الله يهبها أى شىء ، فقد التقط الدعوات المنسوبة إلى الشجرة ، وأخذ يرددها هو فى سجود خاشع لرب العالمين . .

وصلة الأنبياء بالله تتحرك للملابسات المثيرة! إن زكريا لما رأى القدرة العليا تتجرد من قانون السببية ، وتسوق الفضل الإلهى إلى مريم بغير حساب ، انعطف إلى ربه يحار: ﴿هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾^(١) .

ومحمد صلى الله عليه وسلم تربطه بنور السموات والأرض روابط فوق الحصر .

وقد كان جهده أن يجعل البيئة كلها من حوله عابدة ساجدة ذاكرة شاكرة . روى النسائي عن يعقوب بن عاصم عن رجلين من أصحاب رسول الله أنها سمعا النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «ما قال عبد قط : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، مخلصاً بها روحه ، مصدقاً بها قلبه ، ناطقاً بها لسانه ، إلا فتق الله له السماء فتقا ، حتى ينظر إلى قائليها من الأرض ! وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤله» .

لا أحب أن أفسد هذا المعنى السمح بتكلف تأويل ! كل ما يفيد الحديث المروى أن القلب الموحد قد تعرض له فورات إخلاص وصدق . تجعل كلمة التوحيد تنطلق من فمه ، فما يقفها دون عرش الرحمن شىء ! وما يشقى صاحبها بعدها أبداً . .

والتوحيد المذكور فى هذه السنن يقوم على فقه لأسماء الله الحسنى ، واصطبغ بمعانيها ، والحمد لله ، أو المادح له أهل لأن يعود قرير العين . .

(١) سورة آل عمران : ٣٨ .

ويحضرني قول لأحد العارفين وقد سئل : ما أفضل الدعاء يوم عرفة؟ أجاب : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير» .

قيل له : هذا ثناء . لا دعاء . !! قال : أما تعرف قول الشاعر :

أذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء !
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء !

روى الطبراني أنه كان مما دعا به النبي صلى الله عليه وسلم عشية عرفة : «اللهم إنك ترى مكاني ، وتسمع كلامي ، وتعلم سري ، وعلايتي ، لا تخفى عليك شيء من أمري . . .

أنا البائس الفقير . المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين . وأبتهل إليك ابتهاج المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضريع . من خضعت لك رقبتك ، وذلل جسده ورغم أنفه . . اللهم لا تجعلني بدعائك شقياً ، وكن بي رءوفاً رحيماً يا خير المسئولين يا خير المعطين» .

وارتباط الثناء بالدعاء ملحوظ في قول النبي صلى الله عليه وسلم : «أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك . وأعوذ بك منك ، سبحانه لا أحصى ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك» . وكذلك في قوله عليه الصلاة والسلام : «أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله» .

وننبه إلى أن حركة الشفتين - والقلب ولسان - لا تعنى شيئاً ، أما عندك يكون النطق ترجمة لشوق هائج ، وفؤاد مفعم ، فإن النعم على كثرتها تتضاغر أمام حمد مرسلها ، والإحساس بمنته !

عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال : الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ» . وفي رواية : «لو أن الدنيا بحذافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال : الحمد لله ، لكان الحمد لله أفضل من ذلك» .

قال القرطبي وغيره : أي لكان إلهامه الحمد أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا ، فتواب الحمد لا يفنى . ونعيم الدنيا لا يبقى ! وهذا تفسير حسن ، والتفسير القريب أن حمد الله - تبارك اسمه - كاف في تقدير النعمة وتقديرها مهما كانت كبيرة . .

على إن إحسان الحمد والمدح لا يقدر عليه كل إنسان ، كيف تمدح من تجهل؟ كيف

تحمد من لا تعامل؟ الأمر يحتاج كما أشرنا إلى فقه في أسماء الله الحسنى يكشف عظمة الذات والصفات وذلك يقوم على جملة عناصر:

منها تدبر القرآن الكريم حين يتحدث المولى الجليل عن نفسه ويبصر بآياته . إن الرجل العادى يستقبل النهار، ويستدبر الليل دون وعى ، وهنا يستثير القرآن الكريم وعيه . من فعل ذلك؟ الله : ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾^(١)!

والمرء يرى ببلاهة مساحات هائلة من الحقول والحدائق ينشق فيها الطين الأصم عن أنواع كثيرة من الحبوب والفواكه ، من صاغها على هذا النحو المعجب وحشاها بالسكر والنشا وشتى الطعوم والروائح؟ ﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبا متراكباً ومن النخل من طلعها قنّوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . .﴾^(٢).

إن التأمل فى الكون باب واسع إلى معرفة جملة من أسماء الله الحسنى . ودلالة هذه الأسماء على الله تبارك وتعالى . .

ومع التأمل فى الكون يحىء التأمل فى أحوال الأفراد والأمم . ودراسة التاريخ قديمه وحديثه ، وكيف يعطى ربنا ويمنع ، وكيف يضحك ويبكى !

إن المسافة لا تطول كثيراً بين قول فرعون : ﴿ما علمت لكم من إله غيرى﴾^(٣) . وبين قوله حين شدته موجة غضب إلى قاع اليم : ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل﴾^(٤).

ولكننا - معشر البشر - صرعى الساعة الحاضرة ، وما نحسن دراسة سنن الله فى الآحاد والجماعات .

وكم من أمم ركبت رأسها ثم كبت بعد أيام أو أعوام : ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور﴾^(٥).

وقد حوى القرآن صنوف العبر من هذا القبيل حتى يعرف الناس ربهم ويحسنوا مراقبته وتقواه ، وتتغرس فى خلاصهم مشاعر الرغبة والرغبة على نحو ما قال النبى صلى الله عليه

(٢) سورة الأنعام : ٩٩ .

(٤) سورة يونس : ٩٠ .

(٥) سورة ساء : ١٧ .

(١) سورة الأنعام : ٩٦ .

(٣) سورة القصص : ٣٨ .

وسلم: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته! ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد»!!

والمعرفه النظرية بالكون وعلومه والناس ونوايخهم يجب أن تتحول إلى إحساس وعمل، وإلا فهي كالطاقة الكهربائية المحبوسة وراء مواد عازلة ما تنير مصباحا، ولا تحرك آلة..

وهنا أقول: إن أعظم إنسان عرف ربه، وتحولت كل ذرة في كيانه إلى قوة ساجدة هو محمد بن عبد الله الذي كان القرآن له خلقا، فهو يستبطن معانيه ويدور مع توجيهه، إنه مشدود أبدا إلى آيات الله في الوحي الهادي والملكوت الواسع، وهو يجتذب من اتصل به إلى هذا المستوى الطهور العالی، فيجعله عارفاً بالله، قواماً بأمره.

لذلت رأينا صحبته أصدق الناس بهاء، وأصفهم فطرة..

وست أصدق أن أحدا يحبه محمدا، ثم يتخذ إلى الله ضربا موصفا!!

أبرز ما في سيرة هذا النبي أن حبه لله، وإعظامه لله، وتغانيه في الله ينتقل من نفسه إلى من حوله، فكانهم في سباق إلى حمد الله والثناء عليه.. ولننظر إلى هذه الأحاديث.

روى أحمد عن عبد الله بن عمر أن عبدا من عباد الله قال: «يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، ولعظيم سلطانك».

فعضت بملكين فلم بدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقلا: يا رب إن عبدك قد فار مقالة لا ندرى كيف نكتبها؟! قال الله - وهو أعظم بها قل عبده - ماذا قال عبدي؟ فالا: يا رب إنه قد قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطنت.

«فقل الله لها اكتبها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها..»

وظاهر أن هذا العابد كان في سباحة روحية طوفت به في افاق لا يعلمها إلا الله، مستجيب فيها من الآيات، والعبر ما شحن قلبه، وغمر حسه، وغلغ على ظاهره وباطنه، فلم ير إلا آل يحبي ربه بهتين اجمعتين..

ورأى الملك أن ما قال فوق ما لديها من ضوابط الاجور، ففعلا ما فعلا.

وعن أبي أيوب قال: قال رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه: فقال رسول الله: «من صاحب الكلمة؟ فسكت الرجل، وظن أنه قد هجم من رسول الله على شيء بكرهه! فقال رسول الله «من هو؟ فإنه لم يقل إلا صواب». فقال الرجل: أنا قلتها يا رسول الله أرجو بها الخير! فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : «والذى نفسى بيده لقد رأيت ثلاثة عشر ملكاً يبتدرون كلمتك . أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى» .

وعن أنس بن مالك قال : قال أبى بن كعب : لأدخلن المسجد فلاصلين ، ولأحمدن الله سبحانه لم يحمده بها أحد!!

فلما صلى وجلس ليحمد الله ، ويثنى عليه فإذا هو بصوت عال من خلفه يقول : اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره ، لك الحمد إنك على كل شيء قدير . اغفر لى ما مضى من ذنوبى . واعصمنى فيما بقى من عمري . وارزقنى أعمالاً زاكية ترضى بها عنى . وتب على .

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقص عليه . فقال : «ذاك جبرائيل عليه السلام» .

وليس غريباً أن يهبط الملك بهذه الدعوات ليستوعبها قلب يشرب إلى مدح الله على نحو لم يسبق إليه ، لقد كانت الملائكة تنزل عندما يقرأ بعض الصحابة القرآن الكريم .

الشيء الذى يستدعى التساؤل : من الذى دفع هؤلاء الأصحاب إلى الإيغال فى طريق التوحيد والتقديس حتى تفجرت ينباع الحكمة من ألسنتهم ونطقوا بكلمات زاكيات فى تمجيد الله وإحلاله؟ إنه النبى العربى المحمد . من غيره وراء هذه العواطف المشبوبة؟ إنه لإنس العباد السجاد الدكار الشكر الذى أهم التسييح والتحميد مع كل زفير وشهيق . . لقد حول الأرض إلى حلبة تنافس السماء فى الذكر ، والشكر .

عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن مما تذكرون من إجلال الله من التسييح والتحميد والتهليل ، ينعطفن حول العرش لمن دوى كدوى النحل . تذكر بصاحبها! أما يحب أحدكم أن يكون له ، أو لا يزال له ، ما يذكر به؟» .

وعن عبد الله بن مسعود : إذا حدثتكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك فى كتاب الله . إن العبد إذا قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر . وتبارك الله قبض عليهن ملك ، فضمنهن تحت جناحه ، وصعد بهن لا يمر على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن . حتى يُجيا بهن وجه الرحمن ، ثم تلا عبد الله : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾^(١) .

(١) سورة فاطر : ١٠ .

قالوا: فاقد الشيء لا يعطيه، ومن تمام ذلك أن يقال: ومعطى الكثير لا بد أن يكون لديه أكثر! إن الأنهار الجارية تجيء عقب مطر هتان يسح أثناء الليل، وأطراف الأنهار.

والحق أن السلف الصالحين الذين تربوا بين يدي محمد، وكل جيل من الأبرار تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا، ثم إلى آخر الدهر، إن هؤلاء، وأولئك بشخصية محمد تأثروا، وبروحانيته استناروا، ومن رسوخ يقينه استمدوا.

إن صحبته في حياته، وصحبة موارثه العقلية والخلقية بعد مماته تفعّلان الأعاجيب، وبقدر الاقتباس من مولد الطاقة تكون القوى الروحية والفقهية، والأساس كله عظمة المصدر.

إن بيننا وبين الشمس مائة وخمسين مليون كيلو متر، من ناحية البعد. ولا ندري من ناحية الزمان متى بدأ إشعاعها؟ لكن بعد الزمان والمكان لم يغير من قدرة الشمس على الإضاءة والانضاج واستبقاء الحياة على كوكبنا. كذلك أثر محمد صلى الله عليه وسلم في المستقدمين والمستأخرين، أثر عبادته وقيادته، أثر سيرته ودعوته، وإن طال الزمان، واتسع المكان...!

ومنهج الذكر والتذكير في رسالة خاتم المرسلين يحتاج إلى شرح... إن الصدق العقلي أساسه الأول، والكلمات التي أهاب الإسلام بأتباعه أن يرددوها هي قضايا علمية صحيحة.

فكلمة: لا إله إلا الله، أو سبحان الله، أو تعالى الله، تعنى تقرير الصواب وتوكيده في أخطر أصول الاعتقاد... وتدبر قوله جل شأنه: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا نذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾ * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون^(١).

ليس لله أم، ولا أب، ولا ابن ولا ابنة. إنه واحد، وما عداه عبد يخضع لأمره، وإذا شاء سحب منه نعمة الوجود، فباد، وتلاشى.

نعم ما عدا الله فهو جزء من الكون الذي يبقى لأن الله يمدّه بالوجود بعدما أوجده بدءاً، كما يحمد المصباح إذا قطعت عنه التيار.

نعم لا شريك لله، ولا حول ولا قوة إلا به، له الفضل، والمملك والحمد.

(١) سورة المؤمنون: ٩١-٩٢.

ومحمد - عليه الصلاة والسلام - أجهر البشر صوتاً بهذه الحقيقة . وأغبر الناس عليها ، وقد زاد بصوته ، ويده خرافات كثيفة عكرت صفوفها واستنقذ جماهير هائلة كانت جائرة عنها . . .

ولا تعرف في سيرة الأنبياء ، وقادة الإنسانية الكبار من قام بمثل جهده ولا من نجح مثل نجاحه . ولا أحسب الأبالسة ومردة الإنس والجن غاظهم أحد ولا اعترض أاثامهم غاضب لله ، مثل ما فعل محمد القوى بربه ، المجاهد في سبيله ، فقد أنصف الحق من الباطل ، والرشد من الغي .

وإني - وهو قوام الليل - جيوش يشق تكبيرها عنان السماء ، تصرخ بأن الله واحد ، وأن الخلق كلهم - وأولهم محمد - عبيد لمن فاضت عنايتهم بركته . ونسقت معاشهم حكيمته . . . !!

إذا كان الدين قبا طيبا ، فهو قبل ذلك عقل سليم ، وفكر حسن ، وعلم صحيح : **«شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم»** (١) .

ونحن لا نسلم من توكيد هذا القول لأن الدنيا لا تزال تسمع من يقول : إن لله أما ، وإن الذات المقدسة ثلاث ذو رؤوس متميزة ، هي أب ، وابن ، وروح قدس . . . وهو كلام صنم من آية حقيقة ، مصدره إشاعة من بعض العقول العبيدة ، وخبالات المغالبة . الجنحة للأوهام . . . كلام ما قاله نبي سبق ، ولا أقره عقل محترم !!

وأهل الكتاب - أعني النصارى خاصة - يكرهون كلمة التوحيد ، وقد حاربوها ولا يزالون ، وسوف تبقى عليها ، ونلقى ربنا بها . . . روى أحمد عن شداد بن أرس - وعبادة بن الصامت بصدقه - قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل فيكم غريب ؟ - يعني من أهل الكتاب - فقد : لا يا رسول الله . فأمر بغلق الباب ، وقال : ارفعوا أيديكم رفوا : لا إله إلا الله - كأنه يباليهم - فرفعنا أيدينا ساعة - فترة - ثم قال : «الحمد لله اللهم أنت بعثتني بهذه الكلمة ، وأمرتني بها ، ووعدتني عليها الجنة ، وأنت لا تخلف الميعاد ، ثم قال : أبشرو فإن الله قد غفر لكم» . . .

وسناء الفكر ، مهما بلغ ، لا يغني عن زكاة القلب ، وصفاء الروح . لقد كان إبليس يعلم

(١) سورة آل عمران . ١٨ .

أن الله واحد، ولكنه أبى أن يلتزم بمبدأ السمع والطاعة، أبى أن يتواضع، وينكر ذاته. أبى أن يكبت نزوات الحقد والاستطالة على الآخرين، أبى أن يكون عبداً حقاً لله.

«هناك الأخلاق الصالحة الذي بناه صاحب الرسالة الخاتمة إنما ينهض على قلب سليم، ترتبط بالله رغبته ورهبته، ولذلك قال: «التقوى ها هنا التقوى ها هنا، التقوى ههنا»، ويشير إلى قلبه.

والقرآن بعد ما يشرح الحقيقة العلمية يشرح الحقيقة الروحية، أو الخلقية وما ينبني عليهما من سلوك. قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْجُورَاتٌ بِأَمْرِ آلِهِ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

ماذا بعد هذه الحقائق العنسية عن رب الزمان والمكان: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٢). لا بد امام الله من الضراعة، والدعاء المصحوب بالتقوى، المقرون بالخشوع - لأنه أدل على الذات وما فيها - ومن تجاوز هذا المستوى فهو يعدو حدوده.

ثم ماذا؟ إن الله قد نظم للأرض ما تصلح به فلا يجوز أن نثير الفوضى في وضع. وعلينا أن نبلغ بالأعمال حد الإتقان، وليبق نظرننا إلى السماء دأنا نرجو الخير، ونحذر الشرور: ﴿وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣). وفي مكان آخر من السورة نفسها يقول تبارك اسمه: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٤).

والذكر المقصود حركة قلب، لا حركة لسان كما يتوهم الجهال. حركة قلب يوجه صاحبه هنا أو هنالك وينشطه أو يكبو به، عن أم أنس رضى الله عنها قالت: يا رسول الله أوصني! قال: «اهجر المعصية فإنها أفضل الهجرة، وحافظي على الفرائض فإنها أفضل الجهاد، وأكثرى من ذكر الله فإنك لا تأتين الله بشيء أفضل من ذكره!!»

الذكر الذي جاءت الوصايا به شيء آخر غير ما يسبق إلى أذهان الدهماء.

إنه مصدر السكينة والاستقرار تجاه صروف الدنيا ومتاعبها. ففي حضارتنا المعاصرة كثر المثقفون، وشاعت المعارف الذكية. ومع ذلك فإن اضطراب الأعصاب، وانتشار الكآبة داء عام.

(١) سورة الأعراف: ٥٤.

(٢) سورة الأعراف: ٥٥.

(٣) سورة الأعراف: ٥٦.

(٤) سورة الأعراف: ٢٠٥.

ما السبب؟ خراب القلوب من الله! إنها لا تذكره كي تتعلق به وتركن إليه. وكيف تذكر من تجهل؟ إن الحضارة الحديثة مقطوعة العلاقة بالله. والإنسان معها قوى ضعيف. ومهما علم قاصر. وحاجته إلى ربه حاجة الطفل إلى أبيه يحنو عليه، ويحميه.

وذكر الله أمام الأزمات والتوازل عزاء ورجاء. قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب^(١).

وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أوثق الناس بالله، وأشدهم تعلقا به. منذ بدأ الدعوة قيل له: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا﴾ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا^(٢). من يومها توكل على الله وواجه قوات الشرك والكفر، فما هان. ولا استكان.

وقد علم محمد الناس أن يثقوا من حنو الله عليهم، ورحمته بهم. وأفهمهم أنه أحنى عليهم. وأرحم بهم من الأم برضيعها. فلماذا ينأون عنه، ويفرون منه؟.

وذكر الله هو وحده أسس الضمير الكاره للآثام. العاصم من الانحراف!

أعرف أن هناك أناسا هم حناجر صياحة باسم الله. إننى لا أعنى هؤلاء أبدا إنما أعنى إنسانا يحس بإشراف الله عليه ﴿فلنقُصَّنَّ عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾^(٣). فإذا هم بسوء توقف، وإذا زين له الشيطان قبيحا كشف خداعه ورفض متابعتة، واستحضر عظمة ربه. ونهيه. فاستقام..

هذا الذاكر العفيف النبيل هو الذى عنته الآية الكريمة ﴿... وأما من خاف مقام ربه وسهى النفس عن الهوى﴾ فإن الجنة هى المأوى^(٤).

ما أكثر الألسنة المتحركة باسم الله. وأقل جدواها! وما أندر الأفتدة الخاشعة لذكر الله. وأحوج العالم إليها.. إن فساد الأديان يحىء من تحولها إلى الفاظ ومظاهر، وما يؤدى أندين رسالته إلا يوم ينشئ ضمائر حية وسرائر طهورا، وقلوبا ترمق الشهود الإلهى برهبة، ذلك هو الذكر الحق..

(١) سورة البقرة: ٢٨ - ٢٩.

(٢) سورة المزمل: ٨ - ٩.

(٣) سورة الأعراف: ٧.

(٤) سورة النازعات: ٤٠ - ٤١.

ومن آثار هذا الذكر أنه يحكم غريزة حب المال ، فالذاكرون لا يلهيهم التكاثر . ولا تزرى بهم طبائع الجشع والشح . هم يأخذون المال من حله ، ويضعونه في حقه ، ولا يجبسونه . ووجوه الخير تنتظره . بل هم كما قيل :

لا يَألف الدرهم المضروب صرنا لكن يمر عليها وهو منطلق

والغاشون من رجال الأديان سقطوا في حبال المال وجمعه واكتنازه . فأعانوا ، أو سكتوا عن أحكام الفسقة . ومهدوا الطريق أمام الفلسفات الملحدة كي تحكم بعدما ساءت سعة الدين ، والمتحدثين باسمه !!

لكن النبي العربي المحمد وزع كل ما جاءه من أموال على الناس . وخرج من الدنيا بلا ميراث لأهل . وربى رجالاً يؤثرون وجه الله على متاع الدنيا كله : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً^(١) . والطريف أن العشرة المبشرين بالجنة كانوا من هذا الطراز الذي ملك الدنيا . ونزل عنها نوره . . .

ليس النجاح أن يكون المرء عديم المال والأهل . ولكن النجاح أن يكون المرء كثير المال والأهل . ومع ذلك لا يشغله شيء من ذلك عن ربه مصداق قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحداكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين* ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها . . .^(٢) .

ولذكر الله آثار كثيرة في الأخلاق والمسالك ليس هنا موضع تتبعها وحسنا أن نقول : إن ذكر العظيم يرفع القدر ويعقد العزم . والاستعداد للقاءه يمنع الضغيان . ويضبط الحقائق . . .

من عرف الناس بربهم ، وذكرهم بحقوقه ، وفند الشائعات الباطلة في ميدان العقائد ، وبين أنه لا إله إلا الله ؟ إنه محمد عليه الصلاة والسلام ، لكن كيف نجح في اقتباده الأجيال إلى الصراط المستقيم ؟

(١) سورة الأنسان : ٨ - ٩ .

(٢) سورة المنافقون : ٩ - ١١ .

إنه عندما بدأ الدعوة في مكة هاج عليه الأكثرون : ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾^(١). بيد أنه مضى إلى غايته يجارب الجنون المتبجح وما زال بعين الله حتى قدم دولة الحق .

كان القرآن خلقه . كانت دراسته لباب فكره . وتيار شعوره . كنت وصياه . وأوامره . وبواهبه حيدر مدوكه . وأساس علاقاته بالناس جميعاً كانت تلاوته سعادة روحه . وقرّة عينه . ومرضاة ربه !

وفي الحديث : «ما أذن الله لشيء إذنه لنبي يقرأ القرآن يتغنى به» ، إن ما صدر عن الله وحياً ، يضبط في الأرض قانوناً وخلقاً ، ثم يعود إليه نغماً عذباً . .

ونذكر هنا قصة عن أثر القرآن في نفس رجل مشرك . قال جبير بن مطعم : إن أباه قدم المدينة مفاوضاً عن قريش في افتداء أسرى بدر والرجل من عظماء مكة . والمهمة التي جاء من أحدها تخليص سعين من صناديد قريش أوقعهم البطر بأيدي المسلمين . .

وسمع الرجل المشرك نبي الله وهو يقرأ سورة الطور في صلاة المغرب . قال : ما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . . واستمر الرجل يسمع الآيات في المحراب الخاشع انخبت . وهو مسحور بالتلاوة المرسلّة . قال : فلما بلغ هذه الآيات : ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾* أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾^(٢) . إلخ قال مطعم : كاد قلبي أن يضير . . !

وكن سماعه هذه الآيات - وهو مشرك - سبباً في دخوله الإسلام بعد ذلك . .

ونتوقف هنا قليلاً . إن سورة الطور مكية ، ولا شك أنها قرئت في مكة مئات المرات فهل لم يسمعها الرجل إلا اليوم ؟ ربما . فإن المشركين هناك تواصلوا بإحداث شغب وضوضاء حول مجلس القرآن حتى لا تغزو معانيه قلباً . فيؤمن بالله .

وربما سمعها من قبل ولكن التعصب والكبرياء صداه عن الحق فلما قلعت الهزيمة أظفر قريش . وعاد إليها رشدها . وتواضعها أخذت تفكر فيما تسمع !!

وقد نظرت أن في الآيات التي روعت قلب الرجل . وتجدد في نفسه إحساساً بما أودع فيها من عبرة . إن الآيات قصيرة . ولكنها ذات جرس لأذع رهيب !

(١) سورة الحجر ٦ .

(٢) سورة الطور : ٣٥ - ٣٦ .

إنها تشبه المفتاح الدقيق لخزائن ضخمة، فالمعاني التي تهجم على الفؤاد بعد سماعها تشبه العواصف العاتية، تكررت كلمة «أم» خمس عشرة مرة، و«أم» عند علماء اللغة تجيء في هذا السياق للإضراب الذي يعقبه استفهام قد يكون نوبيخاً، أو تفريراً، أو تعجباً. .
إن النفس الإنسانية تتقلب على هذه المشاعر بما ينفي عنها الغفلة، ويرغمها على الانتباه.

﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾^(١).

﴿أم يقولون شاعر نترصد به ريب المتون﴾ قل تربصوا فإنني معكم من المتربصين﴾^(٢).

﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾^(٣)

﴿أم هم قوم طاغون﴾^(٤)

﴿أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون﴾ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾^(٥)

﴿أم خلقوا من غير شيء﴾^(٦).

﴿أم هم الخالقون﴾^(٧).

﴿أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾^(٨).

﴿أم عندهم خزائن ربك﴾^(٩).

﴿أم هم المسيطرون﴾^(١٠).

﴿أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾^(١١).

(١) محمد نبي الفطرة السليمة والفعل المتوازن.

(٢) ريب شئ: قوارع الزمن، ومصيبة الموت، فليستظروا، وستكشف الأيام لمن العاقبة.

(٣) ليس هذا منطقت عقل

(٤) من هو الطغاة ويطغون.

(٥) يزعمون أن القرآن كلام بشر فليأتوا إذن بمثله، وليواجهوا التحدى.

(٦) هل خلقوا من عدم؟ إن الصفر لا يوجد شيئاً.

(٧) هل أوجد الجنين نفسه في بطن أمه، وشق لنفسه السمع والبصر؟ مستحيل.

(٨) هل نحن الذين خلقنا الأرض من تحت السماء من فوقنا؟

(٩) إن الله منح محمد النبوة، فما دعيهم في هذا العطاء، هل خزائن الرحمة نايد بهم.

(١٠) هل لهم قدرة يدبرون بها الأمور.

(١١) إن كانت فليصعدوا إلى السموات بسلام ويستنزلوا منها وحياً.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾^(١).

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ فِي مِعْزَمٍ مَثْقَلُونَ﴾^(٢).

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾^(٣).

﴿أَمْ يَرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾^(٤).

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٥).

هذا أثر القرآن في رجل مشرك التفت إليه بسمعه وفؤاده .

وروى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا قال : خرج عمر بن الخطاب يعسى المدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين . فوافقه قائماً يصلي . فوقف يستمع قراءته . فقرأ الرجل : ﴿وَالطُّورِ﴾ وكتاب مسطور . ﴿حَتَّىٰ بَلَغَ﴾ : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ما له من دافع .

فقال : قسم ورب الكعبة حق ! فنزل عن حماره ، واستند إلى حائط - وهو مروع النفس - فمكث ملياً ثم رجع إلى منزله . فمكث شهراً يعود الناس لا يدرون : ما مرضه ؟ رضى الله عنه .

إن أسبر المؤمنين عمر كان مفعم الصدر بخشية الله وهو يمشى في أزقة المدينة يتفقد رعيته ، وينصت المسامع ليتعرف ما هنالك . كان الرجل الكبير يحمل هموم الجماهير . ويسهر ليقدّم حساباً إلى الله عما ولى من شئون الأمة ! وكانت تلك المشاعر المضغوطة كالوقود الذى يرتقب شعلة ليلتهب ، فلما سمع : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ . كن ذلك كفاياً ليُرجل قلبه . ويشحب وجهه . وتدمع عينه ، ويثوب إلى بيته عليلاً . وما به علة إلا مخافة الله . وعمر إن شاء الله يبعث من الآمين . فهو من السابقين الأولين والعهدة المشيرين . ولكن الضمير الخساس لا يعرف ضآئينة حتى يلقي الله بها أدى ووفى . . . !!

وإنما ذكرت هذه القصة لأنى مغیظ من رعاى يلتفون حول قارئ القرآن ناعم الأوتار .

(١) يزعم المشركون أن آفئهم بذت الله مع أنهم يضيقون من نسبة البنات إليهم .

(٢) إنك متجرد في دعوتك لا تبغى من ورائه مالا ولا جاها فإذا يضربقهم .

(٣) القرآن من عند عالم الغيب فأنى هم بلوغ مستواه ؟

(٤) إذا كانوا يمكرون اليوم بك فغداً يهزمون .

(٥) ما عد الله عبده ، وكل إله غيره كذب . والآيات من سورة الطور : ٢٩-٤٣ .

فإذا هم يصيحون حوله بسفه . ما يفقهون من معنى . ولا يستضيئون بعظة . تحول بهم
محس القرآن إلى مجلس لغو . وهو . قبحهم الله . . !!

هـ كم أساء المسلمون إلى كتاب الله ، وإلى ذكر الله !!

إن الآيات التي طار لها قلب امرئ واع - من سورة الطور - والتي ساقته - وهو مشرك - إلى
الإيمان بالله ، هذه الآيات بدأت بجملة واضحة : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا
مجنون ﴾ . هذا التذكير هو إنشاء برامح حياة جديدة . هو بناء حياة من طراز راشد على
أنقاض حياة بالية . .

والذكر هنا معاملة مع الله . وهي معاملة فيها تبادل نشاط وتقدير إن صح التعبير -
وبلله المثل الأعلى - وهذا معنى يتضح من الحديث القدسي المشهور : « يقول الله : أنا عند
ظن عبدي بي ، وأنا معه ، إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي . وإن ذكرني في ملأ ذكرته في
ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه
بأعاً ، وإن أتانى يمشى أتيت هرولة » . وفي رواية عن أحمد بعد ذلك : « . . والله أسرع
بالمغفرة » .

إن هذا الذكر هو إقبال رجل على الله بعزم ، وقبول الله لذلك . وإقباله عليه أجل .
وأزكى . .

ولصاحب الرسالة كلمات مضيئة في هذا الميدان نستهدي بها :

« من قال : لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة » : وما إخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عما حرم
الله عليه » .

« كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن . سبحان الله
وبحمده . سبحان الله العظيم » .

« الظهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان . وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين
السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان . والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو
عليك . كل الناس يغدو . فبائع نفسه . فمعتقها ، أو موبقها » .

وعن ابن أبي أوفى ، قال أعرابي : يا رسول الله إني عالجت القرآن فلم أستطع - لم أقدر
على حفظه - فعلمني شيئاً يجزى عن القرآن ! قال له الرسول : « قل : سبحان الله والحمد

نلّه ولا إله إلا الله والله أكبر». وزاد في رواية: «ولا حول ولا قوة إلا بالله». قال الأعرابي: يا رسول الله هدا لربي. فما لي؟؟ قال: «تقول: اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني - حسبك فان - واهدي».

ومضى الأعرابي. فقال رسول الله: «ذهب الأعرابي وفد ملا يديه خيرا...».

والأحاديث في ذلك باب واسع، والذي يكتب عن النبي العربي المحدث في الأخلاق يظن سنته كلها خلقا، أو في الجهاد يظن سنته كلها جهادا، أو في الذكر يظن سنته كلها ذكرا... .

إن ضخامة هذا الرسول ترد المتطنع، وهو حسير. فسبحان من بعثه رحمة للعالمين... .
«اللهم لك الحمد حمدا كثيرا خالدا مع خلودك، ولك الحمد حمدا لا ينتهي له دون علمك. ولك الحمد حمدا لا ينتهي له دون مشيئتك، ولك الحمد حمدا لا أجر نقده إلا رضاك...».

نبي الرحمة ونبي الملحمة ..

لا يستطيع ذو خلق أن يتهم محمدا بأنه كان يريد برسالته بسطة في المال أو بسطة في الجاه، أو حظ من حظوظ الدنيا . .

والمعروف في سيرته أنه كان أعلى الناس هتافا بتوحيد الله وتمجيده، وأغبر الناس ضد نسبة الشركاء والشفعاء إليه، وأرغبهم في تنفيذ أمره، وتوقير وحيه : وإبعاد الأهواء عما شرع للخلائق . .

وقد كان يحزن - إلى حد الاعتلال - لصدود الجهال عنه ويأسف لمضيهم في عماهم، ولكن الله عرفه أنه مكلف بالبلاغ، وحسب : ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾* إلا تذكرة لمن يخشى^(١).

وأفهمه أنه لا يقتاد الناس إلى الصراط المستقيم قسرا، وأن الحماس والإخلاص لا يحمالانه على هذا المسلك : ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾^(٢)؟

نكس تبسح الأدب الأخرى أحسوا بخصر من الدعوة الجديدة، ورأوا أن ترك صاحبها يتحدث معنّه انصراف الناس عنهم، فإن الإسلام له بالنفس الإنسانية قرابة، أليس صدى الفطرة؟ إن العقل يتقبله على عجل، وإن القلب يرغب فيه دون تكلف، من أجل ذلك اتخذ أعداء الإسلام طرقا عديدة للصد عنه . . !!

ولو كانت هذه الطرق مقارنة دليل بدليل، لرحب الإسلام بهذا النزال، واطمأن إلى نتائجه . . !!

(٢) سورة يونس : ٩٩ .

(١) سورة مائدة : ٢ - ٣ .

لا . . إن الأمر مشى على سياسة الصلف والتحدى التى لا يحسن الأقوياء غيرها :
﴿وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لنعوذن فى ملتنا﴾^(١).

إن هذه السياسة فرضت على النبى الصبور المكافح أن يتصب للدفع عن رسالته .
وعن المستضعفين الذين اضطهدوا معه لاعتناقها .

إذا كنت تمشى فى الظلام ومعك مصباح يضئ لك الطريق ، فإنك قد ترفع مصباحك
ليتهدى معك غيرك ، وإن كره أحد الانتفاع بسناك فليتعسف السير وحده ، وليتعرض
للحفر والمهالك ما شاء له هواه ، ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن
عمى فعليها﴾^(٢).

لكن ما العمل إذا حاول سفيه يهوى الظلمة أن يكسر مصباحك ؟ ويطفىئ شعاعك ؟
أليس من حقت أن تقاتله لتستبقى الهدى لك ولغيرك ؟

إن ذلك ما فعله محمد ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام
والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره
الكافرون* هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره
المشركون﴾^(٣).

إن الذين يؤيدون سياسة تكسير المصابيح هم أشد الناس بغضا لمحمد ، وكرها للرسالة
التى جاء بها ، وهم يدركون أن الضوء عدوهم لأنه يكشف باطلهم ، ففى نور الحرية
العقلية وحده يرفض الإنسان مبدأ التثليث فى الألوهية ولو قيل له تسويغاً لذلك : إن
المثلث خط واحد . . ويرفض رب إسرائيل المتعصب لشعبه وحده ، المزدرى لسائر
الشعوب . الذى لم يتحدث عن الآخرة بكلمة . .

وقد شرع محمد يدعو إلى دينه . فلننظر فى دعوته . أترى فيها آثارة لمجد شخصى ، أو
تطلعاً لغاية دنيوية ؟؟

هل رأينا فى تراث إنسان أحر من هذا الحديث عن الله ووحدانيته ووجوب التفانى فى
مرضاته ؟؟

ثم لننظر فى القتال الذى خاض ميدانه ، هل رأيناه معتدا بقوته أم مستندا إلى قوة الله

(٢) سورة الأنعام : ١٠٤ .

(١) سورة إبراهيم : ١٣ .

(٣) سورة الصف : ٧ - ٩ .

وحوله وطوله؟ هل رأيناه يبغى شينا غير إعلاء كلمة الله؟ هل رأيناه يقول: الويل للمغلوب، أو يجعل الظروف تقول ذلك. أم ترك حرية الدين عامة شاملة بعد ما قلم أضافر الطغاة؟ لنستنطق التاريخ العادل . .

كانت معركة بدر أول قتال وقع بين الإسلام والوثنية، وذلك بعد خمس عشرة سنة من بدء الدعوة. ماذا كانت حال المسلمين خلال هذه المدة؟ كانوا مهدرى الحقوق، كانوا غرضا قريبا لكل ذى عدوان.

وكان الرسول يشكوا إلى الله ضعف قوته وقلة حيلته . . ورفض الجاهليون كل الرفض الاعتراف بالإسلام، وعده دينا يقبله المجتمع العربى . .

أخرج المسلمون من مكة - وهى الحرم الأمن - وكشرت الوثنية عن أنيابها. وبعد ما تم لها ما تريد أعلنت أن أهوان والطرْد نصيب كل من يدخل فى الإسلام فهل يلوم أحد المسلمين إذا تصدوا لهذا التحدى. وقرروا الوقوف أمامه فى حدود قواهم القليلة؟

وماذا يفعلون؟ ارتقبوا فرجاً مع الغد المجهول . . وجاء هذا الفرج من حيث لا يحتسب أحد . . فقد فرضت الظروف على المسلمين معركة بدر دون أن يستعدوا أو يخططوا لها. وشعر فريق منهم بالكره البالغ لهذا القتال المفروض وتقدم المشركون للمعركة، وهم واثقون من دحر الإسلام، وحفر قبره هنا . . .

وأحسن النبى عليه الصلاة والسلام أن التصدى هؤلاء ما منه بد. وأن جهاد الماضى المر بنايع قمته اليوم. وأن حكم الله قد تتمخض عنه هذه الساحة التى مهدها القدر، فاتجه عليه الصلاة والسلام إلى ربه ينشد النجدة واخفى . .

قال ابن عباس: قال النبى عليه الصلاة والسلام. وهو فى قبته التى أقيمت له ببدر: «اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم. . .» فأخذ أبوبكر رضى الله عنه بيده: فقال: حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك . . فخرج النبى وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر» بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر^(١).

وفى رواية: استقبل نبى الله القبلة ثم مديده فجعل يهتف بربه عز وجل يقول: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى. اللهم آت ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض». فما زال يهتف بربه ماداً يديه، حتى سقط رداؤه . .

(١) سورة القصر: ٤٥-٤٦.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشعر أن قريشا أقبلت بكبريائها وبطرها تريد أن تتوج اضطرهادها للإسلام بيوم أغبر. . وكان يعلم أن جمهرة المسلمين صابرت البأساء والضراء أمدا طويلا وهي متشبثة بدينها في وجه عناد شديد، فنظر إلى حالتهم قبيل القتال المرتقب وقال: «اللهم إنهم جياع فأشبعهم. . اللهم إنهم حفاة فاحملهم. . اللهم إنهم عراة فأكسهم».

نقد كلفهم الإيمان الكثير طوال السنين التي مضت. .

ولم يكن أحد يدري أن الله تبارك اسمه قد تآذن بتغيير الوضع كله، فأغرى قريشا بدخول معركة هي أغنى الناس عنها، ووضع المسلمين أمام أمر واقع لا يستطيعون عنه حولا، لم؟ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين* ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون* إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم. . . .^(١)

نعم استجاب الرحمن لاستغاثته نبيه، وتنزل النصر المفاجئ فكان صاعقة كسرت ظهر الكفر، وجائزة ملأت أيدي المؤمنين بالخير، وصبغت وجوههم بالبشر.

ولم يكن انتصار بدر هذا إلا فاتحة عهد آخر من الجهاد العسكري تجمعت فيه كل القوى المعادية للإسلام تريد الإجهاز عليه والخلاص منه. .

واستأنف النبي وصحبه العمل لربهم وآخرتهم، إن أطاع الدين لم تكن أمل هؤلاء الرجال الكبار، إن الموت من أحل المبدأ الخليل هو ما غرسه النبي فيهم، وهو اسعد نهاية يختم بها مؤمن حياته. . . !!

وقد تعلق المسلمون بهذا المعنى في أيام الرخاء والعافية، فهم في الأمن والصحة يسألون الله الشهادة كما جاء في الحديث: «من سأل الله القتل من نفسه صادقا، ثم مات، أو قتل فيه أجر شهيد». وفي رواية «من سأل الله الشهادة بصدق، بلغه الله تعالى منازل الشهداء، وإن مات على فراشه».

وبذلك التجرد لله تكونت أمة وراء نبيها تنصر الحق، وتثار له، ولا تبني بأنصبتها من الدنيا، وكانت دنياها في الأغلب رقيقة لما ارتبطت به من تكاثيف، وما حل به من غربة. عن أنس بن مالك: خرج رسول الله إلى الخندق فإذا المهاجرون والانصار يخفرون في غداة باردة، صباح شتاء قارس، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: «اللهم إن العيش

(١) سورة الأنفال: ٧-٩.

عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة». وكانوا يحفرون التراب وينقلون أكوامه على ظهورهم، وينشدون :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

كان رسول الله حريصاً على أن يكون القتال لله لا لدنيا عارضة. وكان يأبى عن رجاله أن ينشبوا الحرب أو يستفزوا الخصوم، فعن عبدالله بن أبي أوفى أن رسول الله في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس - خطيباً - قال : «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية. فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قال : «اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم، وانصرنا عليهم».

وفي رواية : «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب اهزم الأحزاب، اهزمهم وزلزمهم». وهزيمة الأحزاب حول المدينة شأنها عجيب، فإن قوات الضلال في الجزيرة كلها أطبقت على المسلمين في مدينتهم، فإذا المسلمون في مأزق ضيق خانق ينذر باستئصالهم. وليس هناك بصيص أمل في بشر، اللهم إلا ما تصنعه السماء.

وكان الظن أن المسلمين قد احتبسوا في مصيدة هي لا محالة مهلكتهم وكان النبي المضارع لربه ينتظر منه العون لحظة بعد أخرى. فلا أمل إلا فيه..

وبوغت الأحزاب الطامعة بالأجواء تتمخض عن عواصف أو أعاصير تخلع خيامهم. وتكب آيتهم، وتبعثهم يطلبون النجاة من حيث جاءوا، بعيداً عن هذه المدينة المنيعه..

وانطلق صوت الإيمان داخل المدينة التي أشرق عليها الفرج يقول : «الحمد لله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده»..

والثابت في خلق الرسول الكريم أنه كان شديد التوكل على الله والتحصن به والثقة فيه. كان إذا قاتل قال : «اللهم أنت عضدى، ونصيرى. بك أحول. وبك أصول، وبك أقاتل»..

وكا إذا خاف قومًا قال : «اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم».

وكان يكره التهريج والفوضى والصخب عند القتال، فالأمر جد، والسكينة أعون على طاعة الله. واستنزال نصره.

والموقف هنا يوجب استحضار قدرة الله ، وفضله وغناه ، وحاجة العباد أبداً إليه .
وتوسلهم إليه بالبراءة من الحول والطول ، ولقد ثبت أن من مواطن إجابة الدعاء . وقت
التقاء الجمعين ، أنه كوقت السجود ، وإنهاء الصوم ، واستغفار السحر ، وكل آناء التجرد
لله . وطلب جداه .

والأمة الإسلامية كلها من وراء الجبهة الساخنة تدعو ربها وتسأله النصر . وهى فى
الصلوات الخمس تقنت ، ترد النوازل ، أو تقنت مع كل مطلع فجر طالبة من الله تأييد
المجاهدين .

ونختار من المأثورات الواردة الدعاء الذى كان يقنت به عمر بن الخطاب وجيوش
الإسلام تطوق أبواب المجوسية والنصرانية ، الديانتين اللتين طالما أذلتا الجماهير ، وطاردتا
التوحيد .

«اللهم إياك نستعينك . ونستغفرك . ولا نكفرك . ونؤمن بك . ونخلع من
يفجرك . . .» .

«اللهم إياك نعبد . ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد^(١) نرجو رحمتك ونخشى
عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق» .

«اللهم عذب الكفرة الذين يصدون عن سبيلك ، ويكذبون رسلك ويقاتلون أولياءك» .

«اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، وأصلح ذات بينهم ، وألف بين
قلوبهم . واجعل فى قلوبهم الإيمان والحكمة . وثبتهم على ملة رسولك صلى الله عليه
وسلم . وأوزعهم أن يوفوا بعهدك . الذى عاهدتهم عليه . وانصرهم على عدوك ،
وعدوهم ، إله الحق ، واجعلنا منهم» .

قال الأمام النووى : « . . واعلم أن المنقول عن عمر رضى الله عنه . . وعذب كفره أهل
الكتاب لأن قتالهم - يعنى المسلمين - كان مع كفره أهل الكتاب . وأما اليوم فالاختيار أن
يقول : وعذب الكفرة فإنه أعم» .

ونحن نخالف الإمام النووى رضى الله عنه فى اختياره الذى حور إليه دعاء عمر ، وعنه
نقلنا الصيغة المثبتة هنا - فإن كفره أهل الكتاب هم فى عصرنا ، وعصر عمر مصدر البلاء
الذى يعانى منه ديننا . وسر النكبات التى حاقت بأممتنا .

(١) نحفد : أى نسرع فى الخدمة والعمل .

بل إن الشيوعية زحفت من بعدهم . سواء في النصف الأيمن للاتحاد السوفيتي ، الذي استعمره القياصرة من قبل . أم في أرجاء العالم الإسلامي الذي أرغمه الاستعمار الصليبي على فتح أبوابه للشيوعية .

كما أرغمه على فتح أبوابه للصهيونية . . .

إن كفرة أهل الكتاب كانوا لا يزالون من أشد الناس حقداً على الإسلام ، ومواريثه ، وقيمه كلها .

ونعود إلى الجهاد النبوي كي نزداد بصيرة فيه . . !!

كانت محنة المسلمين شديدة يوم طوقت الأحزاب المدينة ، وكان الخناق يشتد عليهم حتى ليكاد يعتصر أرواحهم ، ومع ذلك ثبت الرجال في موقف الحراسة ، وأحبطوا المحاولات الكثيرة التي قام الكفار بها لاقتحام المدينة .

وفي يوم من الأيام رأى المهجمون أن يقوموا بعمل حاسم لايقاع الهزيمة بالمسلمين ، وإحداث ثغرة في استحکاماتهم ينفذون منها إلى قلب يثرب .

وتلاحق الرجال يصدون هذا التسلل ، وكان قد بدأ بعد الظهر ، وظل الهجوم والدفاع مستمرين حتى ولى الأصيل وأقبل المغرب والمسلمون لا يستطيعون أن يصلوا العصر ، كان الخطر شديداً على المدينة ، ولم يجد الرسول وصحبه بدا من مواجهة العدو حتى تنكسر حدته . .

ووقف الهجوم بعد المغرب لما ينس المشركون من إدراك شيء !

فصلى المسلمون العصر بعد وقتها ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم مغیظاً لما حدث فقال «مأ الله قلوبهم ويوتهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر» . وعن ابن مسعود قال : «حبس المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة العصر حتى احمرت الشمس أو اصفرت ، فقال : «شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ، مأ الله أجوافهم وقلوبهم ناراً» .

إن هذا التعليق على الهجوم الفاشل يستحق التأمل الطويل ، إضاعة وقت العصر كان محنة حقيقية عند النبي عليه الصلاة والسلام ، لقد فوت المشركون عليه أن يؤم أصحابه في جماعة خاشعة تناجي ربها ، ترجو رحمته وتخشى عذابه .

لقد كانت سعادة هذا الإنسان الجليل أن يستغرق في الصلاة ، ويسلم وجهه ومشعره في عبودية كاملة للرب العالمين .

قال علماء البلاغة : الإطناب في موضعه حسن ، ومثلوا لذلك بإجابة موسى لربه لما سأله : ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾^(١) ؟ كان الجواب : عصاى . . ولكن موسى قال : ﴿هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى﴾^(٢) . إنه أطل الرد عمدًا ليُطيل الوقت مع العظيم الأعلى . ولماذا يختصر فرصة عمره ؟

وخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام كان يرى الصلاة معراجة الذى ينجى فيه ربه . أو الساعة التى تصل الملائ الأعلى بأهل الأرض ، ومن أجل ذلك كانت الصلاة لذته الروحية . ومن أجل ذلك كان غضبه لما شغله المشركون عن موعد لقاء مع من يجب . . . !

وعلاقة الرسول مع ربه جل شأنه تستحق التأمل العميق فى موقف آخر فقد تعرض المسلمون معه لأنكسار شديد فى معركة أحد ، وقتل من الرجال العظام سبعون هم من خيرة شهداء التاريخ . وأصيب النبى عليه الصلاة والسلام بجرح نافذ فى خده . .

ومع فرح المشركين . وشماتة العدو ، وآلام المؤمنين ، فقد دعا النبى عليه الصلاة والسلام إلى صلاة جامعة ليحمد الله على ما وقع !!

روى الإمام أحمد قال : لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون — عائدين بعد ما كان — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «استووا حتى أثنى على ربى عز وجل» . فصاروا خلفه صفوفًا . فقال صلى الله عليه وسلم : «اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت . ولا يأسط لما قبضت ! ولا هادى لمن أضللت . ولا مضل لمن هديت . . !! ولا معطى لما منعت . ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت» .

«اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك ، وفضلك ، ورزقك . .» .

«اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول . . اللهم أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف» .

«اللهم إنى عائد بك من شر ما أعطيتنا ، ومن شر ما منعتنا» .

«اللهم حبب إلينا الإيمان ، وزينه فى قلوبنا . وكره إلينا الكفر ، والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين» .

(٢٠١) سورة طه : ١٧ - ١٨ .

«اللهم توفنا مسلمين . وأحينا مسلمين وأحقنا بالصححين غير خزيًا ولا مفتونين» .

اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك . ويصدون عن سبيلك . واجعل عليهم
حزك وعذابك . . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب . إله الحق» .

هذه دعوات بنسكب البقيين من كل حرف فيها ، إن الهزيمة قد تكسر أفئدة الذين
يعبدون الله على حرف . فأما الذين فتروا في الله وبغوه فوسمهم ذمواهم ، فإن عبوديتهم
تتألق في السراء والضراء ، وهم يسمون لله ما أراد . ويخضعون حكمته .

وذاك سر الكلمة الرقيقة الغالية التي قالها الرسول لصحبه بعد هزيمة : «استووا حنى
أثنى على ربي عز وجل . . » .

لما تألم المتنبى لشر ناله من سيده سيف الدولة قال :

فإن يكن الفعل الذي ساء واحدا فأفعاله اللاني سررن الوف!

إن الموقف هذ شيء آخر ، فإن النبي أجليل عدا ما وقع قدرا يعلم الله حكمته . ولا يجز
على وضعه بالسوء . إنه يستعين بالله من شر ما أعطى ومن شر ما منع على سواء . فربما كان
العضاء مخوف العقبي . وربما كان المنع ألما في الحاضر ، وخيرا في المستقبل . .

وحصن المؤمن أولا وآخرًا هو الله تبارك اسمه . . .

وقد ختم الرسول دعاءه باستنزال بأس الله على المشركين . ثم ضم إليهم الكفار أهل
الكتاب . وذاك أن اليهود في المدينة كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين!

إنهم سيفرحون كثيرا لما حدث ، حسبهم الله!

ولا شك أن ضربة أحد كانت موجعة بيد أنها نفضت المجتمع الإسلامي نفضا شديدا .
فامتاز المنافقون ، وانعزلوا بغشهم وخداعهم . وتعلم المسلمون كيف يواجهون الأحداث
بإيمان حر ، وصف ملتئم . .

وشمت اليهود للنكبة النازلة . ولكن لم تمض سنون حتى نزلت لهم أضعافها ، ثم تركوا
قلب الجزيرة إلى حيث ألق . .

قد يتحدث المؤرخون عن محمد المقاتل ، وقد يصفون عبقريته العسكرية ولكنهم يخطئون

خطأ الجسيم حين يعزلون هذا الجانب عن الجوانب الأخطر والأهم من سيرته الشريفة . .
لقد قاتل حين كان سفك الدماء قصاصاً لضمان الحياة . أو حين يأمر بقتل مجرم . ولا
يرون الطبيب مقاتلاً حين يأمر ببتن عضو .

إن القتال الذى خاضه محمد وصحبه كان فى سبيل الله ، وما كان فى سبيل مأرب
شخصى ، أو مجد ذاتى ، أو توسع إقليمى ، أو عرض آخر مما ألفه المؤرخون فى سيرة القادة ،
والساسة على اختلاف العصور!!

قالت عائشة : ما ضرب رسول الله بيده خادماً له قط ، ولا ضرب امرأة . ولا ضرب بيده
شيئاً قط . إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا خير بين شيئين إلا كان أحبهما إليه أيسرهما ،
حتى يكون إثماً ، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس عن الإثم . ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى
إليه . إلا أن تنتهك حرمة الله ، فيكون هو ينتقم لله عز وجل !!

وقال : «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» .

وجاء فى وصفه عليه الصلاة والسلام «ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ،
لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشى على القصب لم يسرع من تحت
قدميه . . لا يقول الحنا ، يفتح الله به أعينا كمها ، وأذانا صما ، وقلوبنا غلفا . . أسدده -
من كلام الله فى هذه الرواية - لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، أجعل السكينة
لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقته ، والصدق والوفاء طبيعته . والعفو
 والمعروف خلقه . والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه والإسلام ملته . . إلخ» .

ولترك هذه المرويات إلى مبادئ أساسية فى الإسلام . كانت - بداهة - منطلق نبه فى
جهاده فقد قال تعالى : ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا
فساداً والعاقبة للمتقين﴾^(١) .

أى أن طلاب الاستعلاء فى هذه الحياة ، وناشرى الفساد فى أرجائها مطرودون من رحمة
الله . .

والواقع أن أغلب القادة الفاتحين . والساسة البارزين كانوا من هذا الطراز الذى
يضحك من كلمة التقوى . ويهزأ من الدار الآخرة . .

. (١) سورة القصص : ٨٣ .

وزبانية الاستعمار قديماً وحديثاً من هذا الصنف المقطوع عن الله، الجاهل كل الجاهل بسبيل الله . .

أما نبي الإسلام فهو لا يعرف إلا هذه السبيل ولا يقاتل إلا فيها . .

الإسلام قاطع في أن الذين يكذبون للدنيا وحدها، ويحدون ما وراءها لا تفتح لهم أبواب السماء . ولا ينتظرهم فيها خير: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون^(١).

إن تلك التعاليم الرفيعة تكشف عن حقيقة القتال الذي خاضه محمد وصحبه!! إنه لله أولاً وآخراً، تحمله صاحب الرسالة الخاتمة كي يحمي الحق، ويرد عنه كيد الكائدين! تحمله كي تبقى للركع السجود حرية العبادة، تحمله كي يقال: الله أكبر. فلا يجيء جبار وغد يسد فم العابد الموحد . .

أما من قاتل ليهتف باسمه، أو ليغنم مالا، قل أو كثر، فليس له في الإسلام نصيب . ولا «بسبيل الله» صلة!

إن نبي الملحمة هو نبي الرحمة، هو نبي الصلاة والزكاة، والبر والتقوى شخصية متكاملة، التقت فيها أعجاذ الإنسانية الرفيعة كلها . .

وإذا كنا نقدم تفسيراً للقتال الذي أداره الإسلام فمن حقنا أن نطلب من القوى المعادية للإسلام تفسيراً لما صنعت ولا تزال تصنع بالإسلام وأمته . .

إن الإسلام اصطدم أول تاريخه بالوثنية واليهودية والنصرانية، فهل تغيرت مواقف 'مشركين' وأهل الكتاب منه بعد مرور أربعة عشر قرناً؟ أم لا يزالون يظنون عليه بحق الحياة؟

في الهند - حيث تسود الوثنية - نقرأ بين الحين والحين أنباء عن المذابح الطائفية هناك . وهذا هو العنوان المختار لقتل ألوف المسلمين بالجملة . .

وذكر المسلمون هناك أن القتل يستمر عندما يكون المسلمون في بلد ما أقل من خمس السكان! أما عندما يكون المسلمون حول النصف فإن المذابح تقل لأن المقاومة ترهب، وخسائر المهاجمين تزيد!!

(١) سورة هود: ١٥-١٦ .

وقد ذبح من المسلمين نحو المليون عندما أنشئت «باكستان» ولا يزال القتل اجمعاً على مصير المسلمين في مئات القرى .

هل راجع الضمير الوثني نفسه في هذه المأسى؟ هل سيراجع نفسه يوماً؟

وقرانا من شهور مقتل عشرة آلاف مسلم في «تشاد»! وهذا الخبر المشنوم نموذج لأخبار كثيرة عن مذابح المسلمين في أفريقية الوسطى . منذ بدأ النشاط التبشيري يرسخ أقدامه هناك .

رصاصية حديثة هي «مسنونة عن هذه المجازر الكالحة» .

ولقد صرخت في قطر إسلامي عزيز . وأنا أقرأ هذه الأخبار طالبا من المسلمين أن يجعلوا للشهداء يوماً من أيام السنة نبكى فيها الدم المهدر والتوحيد المستباح . إن دمنا أرخص دم في ديب الناس . ولو أن الكلاب قتلت بهذه الأعداد الكبيرة لغضب لها جماعات الرفق بحيون . . . !!

وفي أواسط هذا القرن الرابع عشر تحركت اليهودية ، وتذكرت بغتة أن لها صلة فلسطين . وبدأ الهجوم الصهيوني على مراحل .

وفرض على العرب أن يستسلموا ، فإذا وجدت رصاصة في البيت نسفت جدرانها . وسوى بالرغم . . .

كم ينبغ قتلانا في فلسطين منذ بدأ غزوها؟ ألوف وألوف . . .

ومضلوب من المسلمين الآن أن ينسوا ويستكينوا!! إن الذين قاتلوا الإسلام من قديم لا يزال قلوبهم معلقة بالضعفان . ولا يزالون يبيتون الشر لمحمد . وتراثه . . .

والغريب بعد ذلك كله أن يتهموا الإسلام بالعدوان ، وهم الذين اسودت قلوبهم . وصحائفهم بالمنكر من الأقوال والأفعال . . . !!

هل يترك هذا الطغيان يحق الباطل ويبطل الحق؟ هل يترك ليذل العزيز ويعز الدليل؟

لقد أمر المسلمون أن يعتمدوا على الله ، ويقاوموا هذا العنف . وقيل لهم : لا تقبلوا الضيم . ولا ترخصوا الحق : ﴿ فلا تمهّنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ﴾^(١) .

إن السلام هنا يعنى الضياع المادى والضياع الأدبى . ولا يتقبلها إلا جبان خاسر الدين والدنيا . . .

(١) سورة محمد : ٣٥ .

وهذا سر عشرات ومئات الأحاديث والآيات التي أوصت بالجهاد . وهو جهاد - كما علمت - في سبيل الله لا إشباعاً لغرور ، ولا تمشياً مع طمع ، ولا جرياً وراء جاه ، ولا عصبية جنس . ولا دعماً لباطل في هذه الحياة ، إنه منع للشرك أن يقتهر التوحيد ، ومنع لنفسه أن يجتاح الحقوق ومنع للقوة أن تمحو العدل . . . !!

في جو من التوقير والتهيب نرمق رجالاً صنعهم محمد المحب لربه ، الراضى عنه ، الغاني فيه ، نفخ فيهم من روحه فإذا هم نيوت بالنهار ، رهبان بالليل ، يؤثرون الله على أنفسهم . ريشدون قبوله بالنفس والنفيس .

هم محاهدون أتقياء ، أشدء على الكفار رحاء بينهم ، من قتل منهم مات شهيداً في سبيل الله ، ومن عاش منهم بقى حارساً يقظاً لكلمات الله . . . كان الواحد منهم ينزع نفسه من أحضان عروسه ليلقى - في سبيل الله - حتفه . وهو سعيد . . . !!

كان الواحد منهم يذهل عن الأهل والعشيرة - في مجتمع قوامه العصبية للأهل والعشيرة - ويتغرب بعقيدته ، مستبدلاً أهلاً بأهل ، وعشيرة بعشيرة . .

وعندما أنظر إلى دنيا الناس الآن أرى العجب ، لقد رأيت كثيرين باعوا دينهم بعرض من الدنيا ، وقالوا كلمات الكفر حرصاً على منصب أو تطلعاً إلى آخر . أو تركوا الحق يموت مستوحشاً لأن إيناسه يغضب بعض الكبراء . .

أين هؤلاء الصغار من الرجال الذين رباهم محمد فاستقر بهم التوحيد وكان مطارداً ، وعرفت الآخرة في سيرتهم . وكانت مجهولة؟؟

في المجتمع المعاصر الآن يقال : إن خطتنا بناء دار لكل شاب ، وتمليك سيارة لكل أسرة ، وتمكين أفراد العائلة من كذا وكذا من وسائل الرفاهية ، ثم ماذا؟ لا شيء . . .

الحديث عن الله ، والآخرة شيء مضحك . .

أما محمد الوافد الغريب على أنصاره بالمدينة فيتوجه أول ما يتوجه إلى بناء المسجد منشداً مع البناء المتطوعين من صحبه .

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة . فانصر الأنصار والمهاجرة . . . !!

لقد بدأ يبنى جيش الحق بكلمات من نور ، أو من نار ، يقول : «لغدوة في سبيل الله ، أو

روحه خير من الدنيا وما فيها» وفي رواية «عدوة في سبيل الله أو روحه خير مما طلعت عليه الشمس» .

«ثلاثة لا ترى أعينهم النار: عين حرس في سبيل الله ، وعين بكّت من خشية الله ، وعين كفت عن محارم الله» .

«رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها» . «رباط شهر خير من صيام دهر» .

«من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا» .

«ما خالط قلب امرئ رهج - فزع وقلق - في سبيل الله إلا حرم الله عليه النار» .

«من بلغ العدو بسهم رفع الله له درجة ، ما بين الدرجتين مائة عام» .

«مقام الرجل في الصف في سبيل الله أفضل عند الله من عبادة الرجل ستين سنة» .

«إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يضمن الله لمن خرج في سبيله - لا يخرج به إلا جهاد في سبيلي ، وإيمان بي ، وتصديق برسلي - فهو ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر ، أو غنيمة .

والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة . ويشق عليهم أن يتخلفوا عني . .

والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل . ثم أغزو فأقتل ! ثم أغزو . فأقتل» .

هذه الكلمات إلى جانب آيات الكتاب العزيز، إلى الجانب التطبيقي العملي لرسول ظل نحو ربع قرن - هو أمد الرسالة - دعوياً منتظماً في نصرته ربه كأنه كوكب دوار، لا توقف ولا شروء . . ذلك كد صنع الجيل الذي ثبت أركان الحق . وأرسى قواعده إلى آخر الدهر . .

الويل للعالم إذا نامت الشرطة ، واستيقظ اللصوص ، وقد أسهر محمد ليله وجند رجاله ليحرسوا مسيرة الحق ، ويطاردوا العصابات التي ألفت الغارة عليه حيناً بعد حين . .

إن الرجل الذي تورمت قدماءه من طول تهجده هو الذي انطلق في ميادين الكفاح المر يضرب ناشري الخرافات ، ويمهد الأرض لغارسي الحقائق . .

ونؤكد مرة أخرى أنه ما اعتمد الإكراه وسيلة لغرس عقيدة، بل إن أنبياء الله كلهم يابون هذه الوسيلة في غرس الإيذان . .

الذى حكاه التاريخ، ولا يزال يحكيه، أن الضلال المسح هو الذى يقوم بأعمال الفتنة والنهب، وأن موقفه من الإسلام لا ينطوى على مهادنة أو شرف . .

وهنا يجب أن نقدر محمدًا قدره، إن توحيد الله سبحانه وتعالى هو الشيء الذى أطبق المرسلون عليه كلهم، ما يعرفون غير ذلك، ما يعرف آدم، ولا نوح، ولا إبراهيم، ولا موسى أن لله ولدا، هو إله معه، وذلك غير إله ثالث اسمه روح القدس!!

إن هذا التثليث غريب على السماء، منكور الأصل والوجهة، ومن حق محمد - والأنبياء كلهم وراءه - أن يصرخوا بالحقيقة الواحدة، وأن يمنعوا كل عقبة تعترضها . .

إن الأرض والسماء وما بينهما تهتف مع محمد وهو يشق أجواز الفضاء بكلمات الأذان . . فإذا استحمق بشر، وظن الآهة عشرًا فليستحمق ما شاء، ولكن ليس له أن يستغل سلطته، أو ثروته فى إيذاء الموحدين، وإغلاق أفواههم . .

ويوم ينكسر سيفه، وهو يحاول قطع الضريق على قافلة الحق، فليذهب إلى الجحيم، ولا مكان للعطف عليه، أو إهانة الذين نجوا منه .

وفى عصرنا هذا تقع مفارقات مستغربة، هناك من يريد إقناع المسلمين بترك رسالتهم! والتنكر للحق الذى شرفهم الله به! والتخلف عن محمد. خير من جاهد لتكون كلمة الله هى العليا!

وما أشك فى أن هذا الصوت القبيح مستأجر للشيوعية أو الصهيونية أو الصليبية، ومصيره إن شاء الله إلى الاضمحلال والتلاشى، فإن الأوفياء لله ورسوله سيقون على العهد إلى قيام الساعة يؤمنون بالله، ويكفرون بالجبت والطاغوت . .

وقد شاء الله أن تقترن الشهادة له بالوحدانية، مع الشهادة لمحمد بالرسالة وذلك لأمر واضح، أن محمدًا عليه الصلاة والسلام كان أشد جوارًا بذكر الله وحده، ومحو كل أثارة من شرك تتسلل إلى دينه .

لقد تعلمنا منه أن نعرف الله معرفة اليقين ، وأن نحبه الحب المكين وأن نتابعه وهو
يردد : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت
وأنا أول المسلمين ﴾ (١) .

فماذا يقول الآخرون؟ إنهم يهرفون بما لا يعرفون! والموعد ساحة العرض . ﴿ إنك ميت
وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ (٢) . .

(١) سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣ .

(٢) سورة الزمر: ٣٠-٣١ .

ختم

هناك أئمة كبار لهم في دراسة السيرة الشريفة بصر أطول ، وخبرة أعمق ، وقد يستطيعون خيراً منى أن يتحدثوا في : «فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء» .

بعضهم قرأنا له من علمائنا الأقدمين ، وبعضهم سيتمحض عنه المستقبل لأن التعرف على صاحب الرسالة العظمى ، واكتشاف جوانب العظمة فيه لم يتما بعد ، على كثرة الكاتبين والدارسين . .

في شبابي كتبت «فقه السيرة» وحسبت أنى أتيت بشيء طائل في الإبانة عن عظمة محمد صلى الله عليه وسلم . .

ثم عرفت - بعد - أن محاولتي كانت محدودة ، وإن كانت - بستر الله - غير مردودة . .

ثم كلفتني «إدارة الشؤون الدينية» بدولة قطر أن أسطر هذه الصفائف فاستجبت .

وكانت عدتي التي اعتمدت عليها عاطفة حب تتحرك في قلبي نحو محمد صلى الله عليه وسلم ، تجعلني حفياً بمناجاته لله ، مشوقاً إلى متابعته ، والإفادة منه .

لكن العاطفة الحارة لا تستر البصر الكليل ، والهمة القاصرة .

لذلك انتهيت من الكتابة ، وقد استولى على الشعور بالنقص ، ثم قلت : جهد المقل ، ولعل غيرى يتم ما بدأت . .

إن الكتابة في شمائل محمد - صلى الله عليه وسلم - وعبادته ، وفروسيته ميدان لا يزال ينتظر الرجال . . وأستغفر الله أولاً ، وآخرًا .

المحتويات

٥ مقدمة
١٠ كيف عرّفنا محمد بالله
١٤ الحب أساسه والشوق مركبه
١٧ أربع وعشرون ساعة من حياة عريضة
٢٣ أرق الدعوات بعد الطعام والشراب
٢٦ مجالس النبوة
٢٨ ليل أبيض
٣٤ في خضم الحياة
٣٦ بناء البيت المسلم
٤٢ معركة الخبز
٥٢ في السفر والعودة
٦١ متاعب الدنيا
٧٤ هل الدعاء من الأسباب العادية
٧٩ الأركان العامة
٩٣ نكر وتذكير
١٠٩ نبي الرحمة ونبي اللحمة
١٢٥ ختام

فن الذكر والدعاء

عند خاتمة الأنبياء

شغفت بسير العباد الصالحين ، وحاولت أن أقبس منها شعاعاً أستضيء به .
كنت بقلبي مع موسى في مدين ، وهو يحس لدع الوحشة والحاجة . وكنت مع
عيسى وهو يواجه مساءلة دقيقة ويدفع عن نفسه دعوى الألوهية . وكنت مع إبراهيم
وهو يوادى مكة المجذب يسلم ابنه للقدر المرهوب ، ويسأل الله الأنيس لأهله .
غير أني انبهرت وتاهت مني نفسي ، وأنا بين يدي النبي الخاتم محمد بن عبد الله ،
وهو يدعو ويدعو .
لقد شعرت بأنني أمام فن في الدعاء ذاهب في الطول والعرض لم يؤثر مثله عن
المصطفين الأخيار ، على امتداد الأدهار . .
ولست في مقام مفاضلة بين أحد من النبيين ، إنها حقيقة علمية رأيت إثباتها في
صفحات قلائل ، مشفوعة بالدلائل التي تزدهم حولها . .
وفي هذا الكتاب سياحة محدودة في جانب شريف من جوانب السيرة ، جانب
الذكر والدعاء .
ما فيه من توفيق هو محض الفضل الأعلى ، وما قد أخطئ فيه هو رشح نفسي
الأمارة بالسوء . .